رواية

لويس لوري

المانح

ترجمة: حمزة ماهر

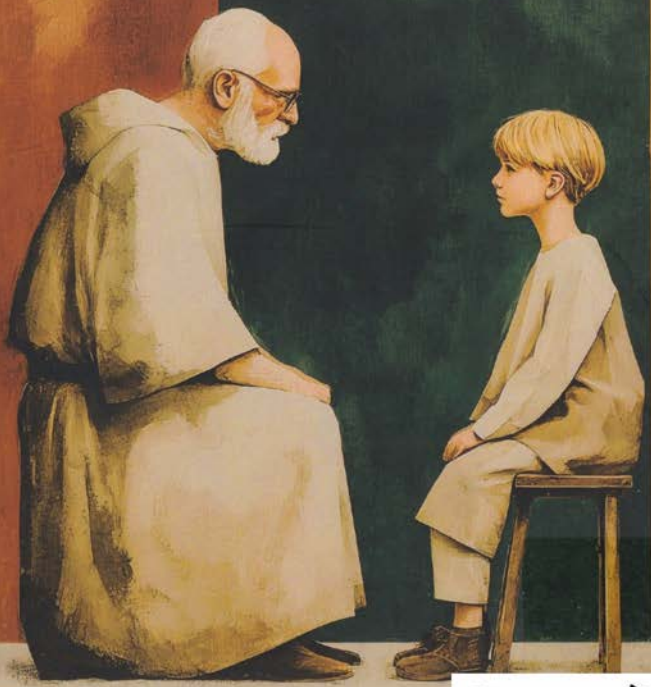

مكتبة
t.me/soramnqraa

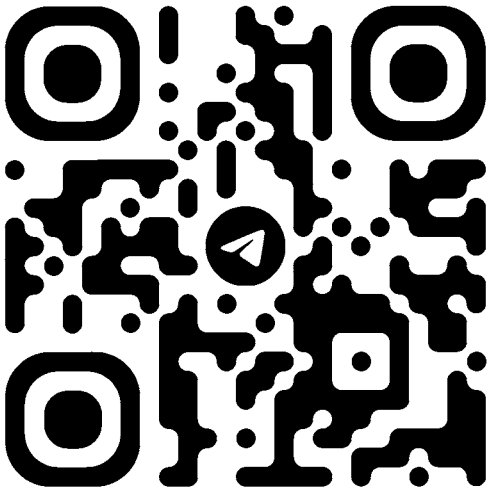

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

المانح
لويس لوري

Author: Lois Lowry

The Giver

© Copyright 1993 by Lois Lowry

Translated from English by:
Hmaza Maher

Book Design:
Sarwar Murad

Cover Illustration:
Meshary M Al-Obaid

Book Cover Design:
Shadi Sarkis

ترجمها عن الإنجليزية:
حمزة ماهر

الإخراج الفني:
سرور مراد

لوحة الغلاف:
مشاري العبيد

تصميم الغلاف:
شادي سركيس

الطبعة الثانية | يناير 2026

ISBN: 978-9921-853-04-9

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

2197-2025

Arabic Translation © 2025 by Dar AlKhan for Publishing and Distribution, Kuwait
Published by arrangement with HarperCollins Publishers.
HarperCollins Children's Books, a division of HarperCollins Publishers
195 Broadway, New York, NY 10007, U.S.A

حقوق هذا الكتاب ونشره والاقتباس منه محفوظة للناشر.
© Alkhan Publishing & Distribution

دار الخان للنشر والتوزيع

+965 99462219 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

المانح

لويس لوري

ترجمة

حمزة ماهر

Author: Lois Lowry

The Giver

إهداء إلى كلِّ الصبيانِ
الّذين نُعلِّق مستقبلنا فِي أَعناقِهِم

١

مكتبة
t.me/soramnqraa

لمّا أوشك شهر ديسمبر أن يحلَّ، شرع الخوف يتسلل إلى نفس (جوناس). لا. كلمة خاطئة. كان هذا ما قرره (جوناس). فكلمة خوف تعني ذلك الشعور البغيض الذي يخامرك حين تتوقع نزول نازلة أو حلول نائبة. ولكن كان الخوف هو الشعور الذي داخَلَه منذ سنة لمّا حلّقت طائرة مجهولة مرّتين فوق المجتمع*. لقد رآها بأم عينيه في هاتين المرتين. رأى وهو محدّق في كبد السماء مرور تلك الطائرة الأنيقة، مشوّشة غير واضحة في أقصى سرعتها، ثم أعقب مرورها دويٌّ صاخب قرع مسامعه قرعًا. وإذا الطائرة نفسها تعود مرة أخرى من الاتجاه المقابل.

ثار الفضول في نفسه أول وهلة؛ ذلك أنه لم يرَ قط طائرة قريبة هذا القرب، فالطيّارون لا تسمح لهم القوانينُ بالطيران في سماء المجتمع. أحيانًا تأتي طائراتُ النقل لتُفرغَ المؤنَ في المهبط عند النهر فيركب الصبيان دراجاتهم وينطلقون قاصدين ضفة النهر ليرقبوا في شغف تفريغها ثم إقلاعها نحو الغرب، بعيدًا عن المجتمع.

ولكن طائرة السنة الماضية كانت مختلفة. لم تكن طائرة نقل قصيرة سمينة غليظة البطن، ولكن كانت طائرة دقيقة الصدر أحادية

* عمدت المؤلفة إلى استخدام كلمة المجتمع بدلًا من المدينة أو الدولة، لأن الرواية لا تتناول مكانًا جغرافيًا محددًا، بل نظامًا اجتماعيًا متكاملًا تجري أحداثه في مستقبل مجهول.

الطيّار. رأى (جوناس) -وهو يتلفت حواليه قَلِقًا- الصبيان والراشدين يتركون ما في أيديهم ويرقبون في حيرة تفسيرًا لهذا الحدث المخيف.

ثم أُمِر المواطنون جميعًا أن يدخلوا أقرب بناء ويمكثوا فيه. **الآن**، قالها الصوت المزعج من المذياع. **اتركوا دراجاتكم في أماكنها**.

فرمى (جوناس) الدراجة على جانبها في الطريق الواقع خلف مسكن أسرته، وهرع إلى الداخل ومكث هناك وحيدًا. كان أبواه في عملهما، وأخته الصغيرة (لِيلِي) في مركز رعاية الطفل، حيث اعتادت أن تقضي ساعات ما بعد الدوام المدرسي.

نظر من النافذة الأمامية فلم يرَ أحدًا، لا أحدَ من طاقم الظهيرة المزدحمة: لا منظفي الشوارع ولا عُمّال المناظر* ولا موصليّ الوجبات الذين غصَّ بهم المجتمع رُخّصَ لك في الكذب. من قبلُ في هذه الساعة من اليوم. لم يرَ إلا الدراجات التي خلّفوها، دراجة هنا وأخرى هناك ملقاة على جانبها؛ وكان إطار دراجة منها لا يزال يدور بطيئًا.

هنالك دبَّ الخوف في نفسه دبيبًا. فوقوف مجتمعه صامتًا يترقب قلب أمعاءه وأرعد فرائصه.

ولكن لم يكن ذلك بشيء. فما هي إلا دقائق معدودات حتى طقطق المذياع، ونطق الصوت يطمئنهم شارحًا بنبرة أقل عجلة: إن طيارًا تحت التدريب غلط في قراءة إرشاداته الملاحيّة فحادَ وسلك مسلكًا خاطئًا. لقد حاول محاولة بائسة أن يتداركَ خطأه قبل أن يُلحظ، ولكنه لم يستطع.

* عمال المناظر هم الذين يعملون على تعديل أو تحسين سمات المناظر الطبيعية والشوارع والمباني... إلخ بحيث تُخلّف في النفس أثرا جماليًا قويا. (المورد الحديث)

وكما تعرفون، قد قُضي عليه بالتسريح. قالها الصوت وأطبق بعدها صمت محيط. كان في العبارة الأخيرة نبرة تهكم، كأن الصوت قالها يعبث. تبسّم (جوناس)، مع علمه ببشاعة هذه العبارة؛ فقد كان تسريح مواطن صالح من المجتمع قرارًا نهائيًا لا رجعة فيه، كان عقابًا فظيعًا مروعًا، كان إقرارًا بالخيبة الكبيرة.

حتى الصبيان يُنتهرون* إن استعملوا هذه العبارة وهم يلعبون، ساخرين من زميلهم في الفريق إن أخفق في إمساك الكرة أو زلت به قدمه أثناء السباق. فعلها (جوناس) مرةً، صاح في صديقه قائلًا: "انتهى أمرك يا (آشر)! قد قضي عليك بالتسريح!". قالها لمّا قاد خطؤه السخيف فريقهم إلى الخسارة. فانتحى المدرِّبُ بـ (جوناس) جانبًا وحدَّثه حديثًا موجزًا جادًّا، فنكس (جوناس) رأسه نادمًا خجلًا، ثم اعتذر لـ (آشر) بعد المباراة.

والآن -وهو سارح يفكر مليًّا في شعور الخوف أثناء قيادته الدراجة إلى البيت على الطريق النهري- ذَكَرَ لحظةَ الرعب الشديد الذي قلب أمعاءه حين مرّت الطائرة من فوقه. لم يكن ذلك الخوف هو الذي يشعر به الآن وديسمبر على الأبواب. لم يهتد إلى الكلمة التي تناسب ما تشعر به نفسه، فظل يجهد ذهنه يفتش علّه يجدها.

كان (جوناس) حريصًا في استعمال اللغة. ليس كصديقه (آشر)، الذي يُهَتْهِتُ** في كلامه ويلْحَنُ، يخلط كلمات وعبارات حتى لا يكاد يفقه منها قولًا وكثيرًا ما تثير الضحك.

* الانتهار: الزجر الشديد. (لسان العرب)

** الهتهتة هي الإسراع في الكلام، يقال: هَتَّ في كلامه، وهَتْهَتَ إذا أَسْرَعَ. (لسان العرب)

تبسم (جوناس) ذاكرًا ذلك اليوم الذي اقتحم فيه (آشر) الفصل -متأخرًا كعادته- يلهث أثناء إنشادهم نشيد الصباح. ولما رجع كلٌ إلى كرسيّه بعد انتهاء الترنيمة الوطنية ظل (آشر) واقفًا ليعتذر علانية كما هو مقرر.

لفظ (آشر) سريعًا العبارة الاعتذارية المعتادة وهو يحاول التقاط أنفاسه: "أعتذر على إزعاج مجتمعي الدراسي". مكث المعلم وطلاب الفصل ينتظرون في صبر شرحه لسبب تأخره. ارتسمت على وجوه كل الطلاب ابتسامة عريضة؛ ذلك أنهم قد اعتادوا استماع أعذار (آشر) من قبل مرات كثيرة.

"غادرتُ البيت في موعدي وركبتُ الدراجة حتى إذا صرتُ قريبًا من المَفقس وجدتُ الطاقم يُخلي بعض أسماك السلمون فوقفتُ أنْظرُ. أظن أني خَبَلْتُ وأنا أشاهدها".

ختم (آشر) كلامه قائلا: "أعتذر إلى زملائي"، وهندم ثوبه المُغضّن* وقعد.

ردد طلاب الفصل معًا في تناغم الاعتذار المعتاد قائلين: "عذرك مقبول يا (آشر)"، وعضَّ كثيرٌ منهم على شفاههم يحبسون أنفسهم عن الضحك.

قال المعلم وهو يتبسم: "عذرك مقبول يا (آشر)، وأشكرك، فقد أتحت مرة أخرى فرصة لشرح درس في اللغة. إن كلمة "خبلتُ" التي استعملتها لتصف شعورك وأنت تشاهد السلمون هي كلمة شديدة فيها مبالغة". ثم أدار ظهره وكتب كلمة "خبلتُ" على السبورة، وكتب بجانبها كلمة "ذَهَلَتُ".

* المغضّن من الثوب أو الجلد هو المتثني المتكسر.

تبسّم (جوناس) -وقد قارب بلوغ بيته- بعدما مرت بخاطره هذه الذكرى. ظل يفكر فأدرك -وهو يجر دراجته ليودعَها في منفذها الضيّق بجانب الباب- أن كلمة خوف التي استعملها كانت كلمة خاطئة في وصف ما شعر به وقد أشرف ديسمبر على الدخول. كانت كلمة شديدة فيها مبالغة كما قال المُعلم قبلُ.

لقد انتظر (جوناس) زمنًا طويلًا حلول هذا الـ(ديسمبر) الاستثنائي. وها هو ذا على الأبواب، لم يكن ما يشعر به هو الخوف ولكن كان... الحرص، هذا ما قررته نفسه. كان حريصًا على حلول الشهر. وكان يشعر بالحماس. كان كل أبناء الإحدى عشرة سنة يشعرون بالحماس، يتطلعون إلى هذا الحدث الذي كان قاب قوسين أو أدنى.

التوجس، هذا ما قرره (جوناس). نعم، هذا الذي أشعر به.

قال أبوه بعد انتهائهم من وجبة المساء: "من منكم اليوم يريد أن يبدأ الإفصاح عن مشاعره؟". كان هذا أحد الطقوس التي تُمارس في المجتمع، الإفصاح المسائي عن المشاعر.

كان (جوناس) وأخته (ليلي) أحيانا يتجادلان أيهما يبدأ أوّلًا. شارك أبواه في هذا الطقس؛ هما، كذلك، أفصحا عن مشاعرهما كل مساء. ولكنهما ككل الآباء -كل الراشدين- لم يتشاجرا أو يستعطف أحدهما الآخر ليبدأ أولاً.

ولا حتى (جوناس) فعل ذلك هذه الليلة. كانت مشاعره معقدة متشابكة. أراد أن يكاشفهم بما تضمره نفسه من مشاعر، ولكن لم يشأ أن يشرع في التنقل بين مشاعره المعقدة، حتى وإن أعانه على ذلك أبواه.

قال: "ابدأي أنتِ يا (ليلي)". قالها بعدما رأى أخته، التي كانت تصغره كثيرًا -كانت في السابعة فقط من عمرها- تتململ على كرسيها حماسًا لأن تبدأ أوّلًا.

قالت (ليلي) تفصح عمّا في نفسها: "شعرت بغضب شديد هذه الظهيرة، كانت مجموعة (رعاية الطفل) التي أشارك فيها واقفة في الملعب، وزارتنا مجموعة من (أبناء السبع)، ولم يطيعوا القوانين قط. ظل واحد منهم -وكان ذكرًا؛ لا أعرف اسمه- يتخطى إلى مُقدَّم صف الأطفال الذين ينتظرون دورهم على الزلّاقة*. فاجتاحتني موجة غضب شديدة. وجعلت يديَّ قبضة، هكذا". فتبسمت بقية أسرتها من قبضتها الصغيرة المُتحدّية.

سألتها أمها قائلة: "لِمَ، في رأيك، لم يطع أولئك الزائرون القوانين؟".

سكتت (ليلي) هنيّة تفكر ثم هزت رأسها وقالت: "لا أدري. لقد تصرفوا كـ... كـ...".

ابتدرها (جوناس) مقترحًا: "كالحيوانات؟" قالها وضحك.

قالت (ليلي) وضحكت هي الأخرى: "نعم، أصبتَ. كالحيوانات". لم يعرف أيٌّ منهما معنى الكلمة، بالضبط، لكنها تُستعمل في المجتمع لوصف شخص جاهل بليد، لا يُرجى منه نفع.

سألها أبوها قائلًا: "من أين كان أولئك الزائرون؟".

قطبت (ليلي) حاجبيها وأجهدت ذهنها تحاول التذكر ثم قالت: "أخبرنا قائدنا بعدما حيّاهم، ولكني نسيت. أظن أني لم أكن منتبهة إلى

* الزلّاقة هيكل معدني أو بلاستيكي ينزلق عليه الأطفال. (المورد الحديث)

كلامه. كانوا من مجتمع آخر. وكانوا مضطرين إلى المغادرة مبكّرًا، حتى إنهم تناولوا وجبة منتصف النهار في الحافلة".

أطرقت أمها تقلب الأمر في رأسها ثم قالت: "ألا تظنين أن قوانينهم ربما تكون مختلفة؟ لعلهم لذلك لم يكونوا على علم بقوانين ملعبكم؟".

هزت (ليلي) كتفيها وأومأت قائلة: "ربّما".

سألها (جوناس): "أنتم زرتم بقية المجتمعات، أليس كذلك؟ قد زارتها مجموعتي مرات كثيرة".

أومأت (ليلي) إيماءة أخرى وقالت: "لما كنّا في السادسة ذهبنا إلى مجموعة أخرى نشاركهم يومًا مدرسيًّا كاملًا في مجتمعهم".

"كيف شعرتِ حين كنتِ هنالك؟".

عقدت (ليلي) حاجبيها ثم قالت: "شعرت بالغربة. ذلك أن طرقهم كانت مختلفة. كانوا يتعلمون أشياء لم نتعلمها بعدُ، فشعرنا بالغباء".

كان أبوها يصغي إلى حديثها فقال: "يشغلني يا (ليلي) ذلك الولد الذي لم يطع القوانين اليوم. ألا تظنين أنه ربما شعر بالغربة والغباء، لأنه وجد نفسه في مكان مختلف ذي قوانين مختلفة لا يعلم عنها شيئًا؟".

تأملت (ليلي) قوله وقالت أخيرًا: "بلى، ربما".

قال (جوناس): "أشعر ببعض الشفقة عليه، وإن كنت لا أعرفه. ولكنّي أشفق على أي إنسان يجد نفسه في مكان يبث في نفسه مشاعر الغربة والغباء".

سألها أبوها قائلا: "كيف تجدين نفسك الآن يا (ليلي)؟ أما زلتِ غاضبة؟".

قالت: "لا أظن ذلك، أظن أني أشعر ببعض الشفقة عليه. ومعذرة إليكم أني صنعت بيدي قبضة". قالتها وتبسمت.

فتبسم (جوناس) كذلك لأخته. كانت مشاعر (ليلي) دومًا صريحة وواضحة يسهل حلها. تذكر (جوناس) أن مشاعره كانت كذلك لمّا كان في مثل عمرها.

استمع إلى أبيه صامتًا لا ينبس، إلا أنه لم يكن منتبهًا. بدأ أبوهم يُطارحهم مشاعر القلق التي ألمَّت به اليومَ في العمل: فقد همّه طفل جديد ليس في حال حسنة. كان لقب (أبو جوناس) في المجتمع (حاضنًا). كان مسؤولًا هو وبقية الحاضنين عن الحاجات البدنية والشعورية لكل طفل جديد في فاتحة أيامه. علم (جوناس) أن الحضانة وظيفة ذات شأن، ولكنه لم يرغب فيها يومًا.

سألته (ليلي) قائلة: "وما جنسه؟".

جاوبها أبوها قائلا: "ذكر، ذكر صغير حلو المنظر جميل الطبع. إلّا أنه لا ينمو سريعًا كبقية أقرانه، ثُمَّ هو لا ينام نوما عميقًا. وضعناه في قسم الرعاية المركزة لمزيدٍ من الحضانة، ولكنَّ اللجنة بدأت تفكر في تسريحه".

همست الأم ترثي له قائلة: "أشفق عليك. أعلم كم يَحزنك هذا".

أومأ (جوناس) و(ليلي) يرثيان له كذلك. كان تسريح الأطفال الجدد دومًا محزنًا، ذلك أنهم لم يستمتعوا بعدُ بالحياة في المجتمع. ثم إنهم لم يقترفوا ذنبًا.

لم يحدث في المجتمع تسريح عن عقاب إلا في حالتين. أولهما تسريح الطاعنين في السن، وكان تسريحهم احتفالًا بحياة عاشوها في

استقامة ورغد؛ وثانيهما تسريح الأطفال الجدد، الذي ثوّروا دومًا في النفوس سؤالًا، وهو ما الذي كان ينبغي علينا فعله؟ كان هذا التسريح عسيرًا على الحاضنين، كأبيهم الذي أحس أنهم أخفقوا في حضانة الطفل. ولكن تسريح الأطفال الجدد كان قليلًا ما يقع.

قال أبوهما: "ولكن، سأظل أحاول. قد أسأل اللجنة أن يأذنوا لي بإحضاره هنا كل ليلة، هذا إن لم تمانعوا. أنتم تعرفون أمر الحاضنين الليليين، أظن أن ذلك الولد يحتاج إلى مزيد من الرعاية".

قالت الأم: "لا، لا نمانع"، فأومأ (جوناس) و(ليلي) تصديقًا. قد سمعا أباهما قبلُ يشتكي طاقم الحضانة الليلية. كانت الحضانة الليلية وظيفة أقل شأنًا، تُسند إلى أولئك الذين لا يملكون الشغف أو المهارات أو البصيرة للأعمال الأهم التي تكون في الفترة الصباحية. أكثر الحاضنين الليليين لا يُزوّجون لأنهم لا يملكون القدرة النفسية على الارتباط بالآخر، وتلك قدرة مطلوبة في إنشاء وحدة أسرية.

قالت (ليلي) مقترحة بلطف، تحاول إظهار البراءة: "ربما حتى نستطيع إبقاءه"، ولكن عرف (جوناس) أنها براءة متكلفة مصطنعة، عرفوا جميعًا ذلك في وجهها.

قالت أمها تذكرها باسمة: "(ليلي)، تعرفين القوانين".

طفلان -ذكر وأنثى- لكل وحدة أسرية. قد خُط ذلك خَطًا ضمن القوانين.

قهقهت (ليلي) ضاحكة وقالت: "أنا، حسبت أننا نستطيع إبقاءه هذه المرة فقط".

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم جاء دور أمهما التي كانت ذات منزلة معتبرة في (قسم العدالة). اليوم مَثُلَ بين يديها مجرم ذو سابقة، قد خرق القوانين مرتين. ظنت أنه عوقب عقابًا كافيًا رادعًا في المرة السابقة، ثم إنه أعيد إلى حيث كان، إلى: عمله، وبيته، ووحدته الأسرية. فأن يَمثُلَ مرةً أخرى بين يديها بثَّ في نفسها مشاعر اليأس والغضب. بل حتى مشاعر الذنب؛ فهي لم تستطع أن تغيّر في حياته.

أفصحت الأم عما في نفسها قائلة: "أشعر بالخوف عليه. كذلك، تعلمون أنه ليس هناك فرصة ثالثة، فالقوانين تنص على أنه إن وقع تجاوز ثالث، فالمتجاوِزُ يُقضى عليه بالتسريح". ارتعد (جوناس) من قولها. فقد وقع ذلك قبل. بل كان هناك ولد من مجموعته، مجموعة (أبناء الإحدى عشرة)، قُضي على أبيه بالتسريح. لم ينبسْ أحدٌ بذلك قط؛ فقد كان أمرًا مُشينًا مُخزيًا. يعسر على النفس تخيّلُه.

قامت (ليلي) من مكانها وقصدت إلى أمها ومسحت براحة يدها ذراعها. ومن مجلسه على الطاولة أخذ أبوهما يدها بين يديه. وأخذ (جوناس) يدها الأخرى.

ولم يزل هذا شأنهم حتى تبسمت وشكرت لهم صنيعهم، وهمست إليهم أنْ قد خُفف عني.

استُكمل الطقس بأن نادى الأب قائلا: "(جوناس)... أنت الأخير هذه الليلة".

تنهد (جوناس) تنهيدة خرجت من أعماق صدره. هذا المساء بالذات أحب أن يترك مشاعره في خبائها ولا يخرجها. ولكنّ ذلك كان ضد القوانين.

اعترف (جوناس) بما في نفسه قائلا: "أشعر بالتوجس"، وسُرَّ أنه استطاع أن يجد أنسب الكلمات وصفًا.

"ولمَ التوجس يا بُنيَّ؟" بدا أبوه مهمومًا.

قالها (جوناس) مُبيّناً: "أعلم أنه ليس ثَمَّ شيء يُقلق، وأنَّ ما أمر به الآن قد مر به من قبلُ كل الراشدين. أعلم أنك كنت كذلك يا أبي، وأنتِ يا أمي. ولكنها المراسم التي بثّت فيَّ التوجس. فهذا ديسمبر، يوشك أن يحل".

رفعت (ليلي) رأسها وأشخصت عينيها وهمست تقول بصوت تغشاه الرهبة: "مراسم (أبناء الاثنتي عشرة سنة)"، حتى أصغر الصبيان عمرًا -أولئك الذين في عمر (ليلي) أو أصغر- علموا أن تلك المراسم تنتظرهم حتى يكبروا.

قال أبوه: "مسرور أنك أفصحت لنا عن مشاعرك".

قالت الأم تشير إلى البنيّة: "(ليلي)، اذهبي فالبسي ثياب النوم. أنا وأبوك سنمكث هنا نحادث (جوناس) قليلًا".

تنهدت (ليلي) تنهيدة المنزعج ولكنها نزلت من على كرسيها طائعة وقالت: "سرًّا؟". أومأت أمها إليها أنْ نعم. "سيكون حديثنا معه سرًا".

٢

كان (جوناس) جالسًا يرقب أباه وهو يسكب القهوة في الكأس والصمتُ يخيم على الجميع. ولم يزل هذا شأنه حتى قطع أبوه أخيرًا الصمت قائلًا: " إنَّ كل ديسمبر كان مثيرًا لي وأنا صغير. وإنه مثير كذلك لك أنت و(ليلي). كل ديسمبر يأتي يَجُرُّ معه تغيرات كهذه".

أومأ (جوناس) برأسه وسرح عقله يذكرُ أشهر ديسمبر الماضية، حتى ذلك الـ (ديسمبر) الذي بلغ فيه عمرُه... ربّما أربع سنين. ولكن عجزت ذاكرته عن استحضار ما قبل ذلك. ولكنه شهدها كل سنة، وذكر أشهر ديسمبر الأولى لأخته (ليلي)، واليومَ الذي استلمتها فيه أسرته، واليوم الذي سميّت فيه، واليوم الذي بلغت فيه سنة واحدة.

كانت مراسم (أبناء السنة) دومًا مزعجة ومرحة. في كل ديسمبر، يصبح عمر كل الأطفال الجدد الذين ولدوا السنة الماضية سنة واحدة. يُحضرهم إلى المنصة واحدًا تلو الآخر (الحاضنون) الذين رعوهم منذ ولادتهم، كان في كل مجموعة سنوية خمسون طفلًا، هذا إن لم يسرّح أحدهم. منهم مَن يمشي، مترنحًا على رجليه المزعزتين؛ وآخرون لا تتعدى أعمارهم بضعة أيام ملفوفون في دُثُرٍ يحملهم حاضنوهم بين أذرعهم.

"أستمتع بمراسم التسمية"، قالها (جوناس).

وافقته أمه وهي باسمة الثغر وقالت: "تلك السنة التي جاءتنا فيه (ليلي)، كنا موقنين أنّا سنحصل على طفلتنا الأنثى؛ ذلك أنّا قدّمنا طلبًا وصُدِّق عليه. ولكنّي مكثت أفكر وأفكر، تُرى ما عسى أن يكون اسمها؟".

"كنت أستطيع اختلاس النظر إلى قائمة الأسماء قبل المراسم"، أسرَّها أبوه إليهما. "اللجنة دومًا تعد قائمة الأسماء قبل المراسم، وهي هنالك في المكتب في (مركز الحضانة) حيثُ أعمل".

واستمر في كلامه يقول: "ولا أكتمكما، يشعرني ذلك ببعض الذنب. ولكنّي اليوم مضيتُ أنظرُ فيها لأرى هل انتهوا من قائمة الأسماء بعد؟ فإذا القائمة بين يديَّ شاخصة، فتناولتها وفتشت عن رقم ستة وثلاثين -وهو رقم ذلك الطفل الجديد الذي يشغلني شأنه- فقد ظننت أن مناداته باسمه قد تنفعه في فترة حضانته، ولكنّي لن أُنَاديَه إلا سرًّا حين لا يكون حولنا أحدٌ".

"وهل وجدت اسمه؟" سأله (جوناس). أخذه حديث أبيه. بلى، لم يكن قانونًا عظيم الأهمية، ولكن راعه* أن يُقْدِمَ أبوه برجليه على خرق قانون من القوانين. التفت ينظر إلى أمه، المسؤولة عن الالتزام بالقوانين، فلما رآها باسمةً ذهب عنه رَوعه.

أومأ أبوه إليه وقال: "اسمه -هذا إن بلغ مراسم التسمية دون تسريح- سيكون (جابرييل). فلما عرفت اسمه جعلت أهمس إليه به وأنا أطعمه كل أربع ساعات، وأثناء فترة التدريب وفترة اللعب. هذا إن لم يكن حولي أحدٌ يسمعني.

* راعه: فاجأه وأخافه.

"أناديه (جيب)"، قالها وتبسّم.

"جيب". أعاد (جوناس) الاسم. أعجبه وقعه على لسانه.

ورغم أنّ (جوناس) لم يكن قد بلغ إلا الخامسة من عمره في تلك السنة التي أُعطوا فيها (ليلي) وعرفوا اسمها، إلا أنه لا يزال يذكر الإثارة التي غشيتهم جميعًا، والمحادثات التي دارت في البيت بينهم يتساءلون تُرى ما عسى أن يكون شكلها؟ ووظيفتها؟ وكيف ستندمج في وحدتنا الأسرية؟ ذكرَ صعوده درج المنصة ومعه أبواه، وأبوه يمشي إلى جانبه تلك السنة بدلَ الحاضنين، لأنها كانت السنة التي يحصل فيها أبوه على طفله الجديد.

ذكرَ أمَّه وهي تتناول أخته بين ذراعيها، والقائمة تُقرأ على الوحدات الأسرية المجتمعة، نادى (المُسمّي) قائلًا: "الطفل الجديد رقم ثلاثة وعشرين، (ليلي)".

وتذكر تهلل أسارير أبيه وهمسه قائلًا: "إنها إحدى أفضل أطفالي في مركز الحضانة، وددت لو كانت هي ابنتي". صفّق الحضور وتبسم (جوناس). أعجبه اسم أخته. لوّحت (ليلي) بقبضتها الصغيرة مستفيقة بعض الاستفاقة.

قال أبوه: "لما كنت في الحادية عشرة، كما هو عمرك الآن يا (جوناس)، كنت لا أطيق انتظار مراسم (أبناء الاثنتي عشرة). كانت تأتي بعد يومين طويلين. أذكر أني استمتعت بمراسم أبناء السنة الواحدة، كما هو دأبي، ولكن لم أحفل كثيرًا بسائر المراسم، إلا مراسم أختي. كانت قد بلغت التاسعة في تلك السنة، واستلمت دراجتها. قبلها كنت أعلّمها على دراجتي، رغم أن القوانين لا تسمح لي بذلك".

ضحك (جوناس) من قوله؛ فذلك القانون لم يكن يؤخذ على محمل الجد وطالما خُرق. كل الصبيان يستلمون دراجاتهم في التاسعة من عمرهم؛ ولا يُسمح لهم أن يركبوها قبل التاسعة. ولكنَّ إخوتهم الكبار كانوا يعلمونهم ركوبها سرًّا. حتى إن (جوناس) بدأ يفكر في تعليم أخته (ليلي).

كان هناك حديث دائر عن تغيير ذلك القانون وإعطائهم الدراجات في عمرٍ مبكر. كانت اللجنة تدرس الفكرة. كان الناس حين يُعرض قانون ما على اللجنة كي تدرسه يتمازحون فيما بينهم قائلين: "سيشيخ أعضاء اللجنة قبل أن يُعدّل القانون".

كانت القوانين راسخة رسوخ الأوتاد في الأرض الصلبة، يستعسر تغييرُها. إن كان القانون أحدَ القوانين العُظمى -وهي خلاف القوانين الصغرى كتلك التي تحدد السن الذي تُستلم فيه الدراجات- فهو يُرفع في النهاية إلى (المُتَلَقّي) كي يقضي فيه. كان (المُتَلَّقي) أعظم (الكهول) شأنًا. لم يرَه (جوناس) قبل قط، ولكنه علم أن شخصًا يشغل هكذا منصبًا عظيمًا لا بد أنه يعيش ويعمل وحيدًا. واللجنة لن تزعجه أبدًا بمسألة من السفاسف كالدراجات؛ بل تمكث اللجنة تتناقش وتتجادل في أمرها سنينَ طوالًا حتى ينسى المواطنون أن ذلك القانون قد رفع إليهم يومًا ليقضوا فيه.

استكمل أبوه قائلًا: "فقعدتُ أشاهد وأصفق حين بلغت أختي (كاتيا) التاسعة ونزعت شرائط شعرها واستلمت دراجتها... لم أحفل كثيرًا بمراسم (أبناء العشر) و(الإحدى عشرة)، ثم حضر أخيرًا دوري في آخر اليوم الثاني الذي بدا كأنه سيطول إلى أبد الدهر".

خُيِّل إليه أبوه الذي كان لا بدَّ حييًّا هادئًا -فتلك شيمته وهو كبير- جالسًا مع مجموعته ينتظر أن يُنادى عليه إلى المنصة.

كانت مراسم (أبناء الاثنتي عشرة) ختام المراسم. وأعظمها شأنًا.

"ما زلت أذكر مشاعر الفخر التي ظهرت على أبويَّ، وأختي كذلك؛ وعلى الرغم من أنها رغبت في الخروج لتركبَ دراجتها علانية أمام الناس، كفّت تململاً ووقفت حين جاء دوري جامدة منتبهة لا تطرف".

واستمر في حديثه يقول: "ولا أخفيك يا (جوناس)، لم تكن تقلقني المراسم كما هو حالك الآن؛ ذلك أني كنت عالمًا قبلها بالتكليف الذي سيسند إليَّ".

دهش (جوناس) من مقالته؛ إذ لم يكن هناك من وسيلة يُعرف بها التكليف قبل أوانه. كان الاختيار يتم سرًّا، يختاره قادة المجتمع، لجنة (الكهول)، الذين تولَّوا تلك المهمة بِجِدٍ وحزم أغلقا بهما أي باب تهاون أو تقصير يخص التكاليف.

دهشت أمه كذلك وسألته: "كيف عرفتَ ذلك؟".

ابتسم أبوه ابتسامته اللطيفة وقال: "كانت ميولي واضحة، حتى إن أبويَّ اعترفا لي بذلك بعدها. كان الأطفال الجدد أكثر ما تميل إليه نفسي، أما أقراني فكانت تلهيهم دراجات السباق، أو بناء العربات أو الجسورِ بعدة البناء، أو...".

أشار إليه (جوناس) قائلًا: "هذه الأشياء نفسها التي نفعلها أنا وأصحابي"، فأومأت أمُّه برأسها تصديقًا.

"قد كنت أشارك في النشاطات، ذلك أن الصبيان لا بد لهم أن يجربوها كلها. وكنت أذاكر بجد في المدرسة، كما هو حالك يا

(جوناس). ولكنّي مرة بعد مرة أجد نفسي، في أوقات الفراغ، ميّالًا إلى الأطفال. قضيت أكثر ساعات تطوعي أساعد في (حضانة الأطفال). لا بد أن (الكهول) علموا ما أنا أهل له أثناء مراقبتهم إياي".

أومأ إليه (جوناس). فقد انتبه خلال السنين الماضية إلى رفع مستوى المراقبة. لاحظ مراقبة (الكهول) له هو وسائر (أبناء الإحدى عشرة). راقبوهم في المدرسة، وفي أوقات الترفيه، وأثناء ساعات التطوع، بل رآهم يدوّنون على أوراقهم ملحوظات وعلم بجلوسهم مع معلميه ومعلمي أقرانه كلهم الذين درّسوا لهم في السنين الماضية.

قال أبوه مبيّنًا: "لذلك توقعته وسعدتُ به، ولم أتفاجأ حين كلفوني تكليف (الحاضن)".

سأله (جوناس): "وهل صفق الناس جميعًا وإنْ لم يتفاجؤوا؟".

قال أبوه باسمًا: "نعم، صفقوا. كانُوا فرحين لي، لأني كلفت التكليف الذي طالما تمنيته. شعرت أني ذو حظ عظيم".

"وهل خاب أملُ أحدٍ من (أبناء الإحدى عشرة) في تلك السنة؟" سأله (جوناس). خلاف أبيه، لمْ يعلم قط ما عسى أن يكون تكليفه. ولكنه علم أنَّ بعض التكاليف ستخيّب آمالَه. وعلى أنه كان يُجلُّ عمل أبيه لم يرغب يومًا أن يولّى تكليفَ (الحاضن). حتى العمال لم يغبطهم قط في تكليفهم.

قال أبوه: "لا، لا أظن ذلك. إنَّ (الكهولَ) حذرون في مراقباتهم، دقيقون في اختياراتهم".

قالت أمه: "أرى أنَّ (الحضانة) قد تكون أهم وظيفة في مجتمعنا".

قال أبوه: "عَجِبَت صديقتي (يوشيكو) من اختيارها طبيبةً ولكنّها طارت فرحًا. وأظن أنه... كان هناك ولد اسمه (أندري) أذكر أننا لما كنا صبيانًا صغارًا لم يحب قط الأعمال البدنية. كان يقضي وقت ترفيهه كله يلعب بعدة البناء الهندسية. بل حتى ساعاته التطوعية كان يقضيها في مواقع البناء. قد علم (الكهول) ذلك فاختاروا له تكليف المهندس وفرح به. ثم دارت الأيام دورتها وصمّم (أندري) الجسر الذي يجاوز عليه الناسُ الآن النهر قاصدين غرب البلدة. لم يكن موجودًا ونحن صبيان".

ثم طمأنه أبوه: "خيبات الأمل قليلة نادرة يا (جوناس). لا يُقلقُكَ ذلكَ الأمرُ، وإن كانت هناك خيبة أمل، فتستطيع طلب استئناف". قالها وضحكوا جميعًا؛ ذلك أن طلب الاستئناف يذهب إلى اللجنة كي تدرسه.

أفضى إليهما (جوناس) قائلًا: "يقلقني قليلًا تكليف (آشر). (آشر) شخص مرح خفيف الظل. ولكن ما من اهتمامات جادة عنده. يظل يصنع لعبة من أي شيء".

ضحك أبوه وقال: "أذكر لمّا كان (آشر) طفلًا جديدًا عندنا في (مركز الحضانة)، قبل تسميته. لم يكن يبكي قط. كان يضحك ويكركر على أي شيء. كنا كلنا هناك نستمتع بحضانة (آشر)".

قالت له أمه: "دع أمره لـ (الكهول)، سيختارون أنسب تكليف له. لا أظن أن هناك مبررًا لقلقك. ولكن احذر يا (جوناس) أمرًا قد لا يكون مرَّ عليك من قبلُ. أمرًا لم يخطر على بالي إلا بعد مراسم (أبناء الاثنتي عشرة)".

"وما هو؟".

"هذه آخر مراسم، كما تعلم. بعد الثانية عشرة، يصبح العمر غير ذي بال. أكثرنا بمرور الزمن نذهل عن أعمارنا، ولكنها مكتوبة محفوظة في قاعة السجلات العامة إن أردنا الاطلاع عليها. الأَولى هو الاستعداد لحياة الراشدين والتدريب الذي ستتلقاه في تكليفك".

قال (جوناس): "أعلم ذلك، كلنا يعلم ذلك".

استمرت أمه في حديثها تقول: "ولكنّ ذلك يعني أنك ستنتقل إلى مجموعة جديدة. كذلك الأمر مع أصحابك كلهم. لن تقضي وقتك بعدئذ مع مجموعتك (أبناء الإحدى عشرة). ستكون من بعدِ المراسم مع المجموعة التي من نفس تكليفك، أولئك الذين يتلقون تدريبهم. لن تكون هناك ساعاتُ تطوع بعدئذ، ولا ساعات ترفيه. أصحابك لن يكونوا قريبين منك كما كانوا".

هز (جوناس) رأسه وقال بحزم: "سنظل أنا و(آشر) أصدقاء، ثم إن المدرسة ستظل موجودة".

قال أبوه يؤيده: "هذا صحيح، ولكن ما قالته أمك صحيح كذلك. ستكون هناك تغيرات".

قالت أمه تلفت نظره: "ولكنّها تغيرات حسنة، بعدما انتهت مراسمي اشتاقت نفسي إلى ساعات الترفيه التي كنت أقضيها في طفولتي. ولكن لما بدأت تدريبي على القانون والقضاء، وجدت أناسا يشاركونني نفس الاهتمامات. كوّنت صداقات بطريقة مختلفة، صداقات من جميع الأعمار".

سألها (جوناس): "هل ظللتِ تلعبين بعد الثانية عشرة؟".

أجابته: "قليلًا، ولكن اللعب لم تعد له في نفسي تلك المنزلة".

"أما أنا فظللت ألعب، ولا أزال. كل يوم، في (مركز الحضانة)، أجلس إلى الأطفال وألعب معهم الغميضة وعناق الدب والهزهزة على الركب". قالها أبوه، ثم مدَّ يده إلى رأس (جوناس) ومسح شعره المقصوص بعناية وقال: "لا تقلق، المرح لا ينتهي ببلوغك الثانية عشرة".

ظهرت (ليلي) لدى الباب عليها ثياب النوم. زفرت متأففة وقالت: "إن هذه المحادثة سرية طويلة لا تنتهي... ثم إني أنتظر أداة التسلية".

قالت أمها تلين لها في القول: "(ليلي)، أنتِ على وشك بلوغ الثامنة، وحين تبلغينها ستؤخذ منك أداة التسلية. سيُعاد تدويرها للأطفال الأصغر سنًا. عليكِ أن تعتادي الذهاب إلى فراشك وحدك دونها".

وما قالتها أمها حتى بلغ أبوها الرفَّ حيث كانت أداة الترويح وتناول منه الفيل المحشوَّ. أكثر أدوات التسلية، كأداة (ليلي)، كانت ناعمة محشوة مصنوعة على هيئة مخلوقات خيالية. كان المخلوق الذي صنعت عليه أداة (جوناس) دُبًّا.

قال أبوها يناولها: "هاكِ يا ليلي بيلي*... تعالي أُعِنْكِ على نزع الشرائط من شعرك".

قلّب (جوناس) وأمه أعينهما انزعاجًا، ولكن ظلا يرقبان (ليلي) وهي ماضية إلى غرفتها مع أبيها تحمل في يدها الفيل المحشو الذي استلمته وهي صغيرة أداةً للتسلية. قامت أمه إلى مكتبها الكبير وفتحت

* ليلي بيلي هو اسم تحببي، كما يقال في الدارجة دودو وسوسو وكذا.

حقيبتها؛ كان عملها كأنه لا ينتهي أبدًا، حتى وهي في البيت. فقام (جوناس) إلى مكتبه وطفق ينضد أوراقه لينتهي من واجبه المسائي، ولكنَّه كان شارد الذهن سارح العقل يفكر في ديسمبر والمراسم التي على الأبواب.

ومع أن أبويه قد طمأناه، لم يكن عنده من علمٍ أيُّ تكليف سيختاره له (الكهول) وكيف سيكون شعوره حين يعلنون عنه.

٣

"انظروا!" صرخت (ليلي) فَرِحة مبتهجة. "ترون جماله؟ انظروا ما أصغرَه! له عينان مضحكتان كعينيك يا (جوناس)!"، فنظر إليها (جوناس) نظرة استنكار. لم يُعجبه ذكرُها لعينيه، فوقف ينتظر أباه ليقرِّعَها. ولكنّه كان مشغولًا يحل سلة النقل المثبتة على مؤخر الدراجة. فمضى (جوناس) نحوه ليشاهد.

كانت عيناه الباهتتان أول صفة لفتت انتباه (جوناس) في هذا الطفل الجديد الذي اشرأب من السلة ينظر في فضول.

يكاد يكون لدى كل مواطني المجتمع عيون داكنة. فأبواه كذلك، و(ليلي) أيضًا، وكل أعضاء مجموعته وأصحابه. ولكن كانت هناك بعض الاستثناءات: (جوناس) نفسه، وصبيّة ابنة خمس سنين قد انتبه من قبلُ إلى أن لديها هاتين العينين الباهتتين الفريدتين. لم يذكر أحدٌ أشياء كهذه؛ لم تكن تعد قانونًا، ولكن كان ذكر الأشياء التي تعيب الأشخاص أو تختلف فيهم يعد من البذاءة.

رأى (جوناس) أن (ليلي) عليها أن تفطن إلى ذلك قريبًا، وإلا استدعوها ليقرعوها على ثرثرتها الجافة المتبلّدة.

أودع أبوه دراجتَه في منفذها، ثُمَّ حمل السلة إلى البيت وتبعته (ليلي) ولكنها نَظَرَت إلى (جوناس) من فوق كتفها وقالت تستفزه: "ربما كانت له نفس الولّادة التي ولدتك".

هز (جوناس) كتفيه غير مبالٍ وتبعهم إلى الداخل ذاهلًا مشدوهًا من عيني الطفل. كانت المرايا نادرة شحيحة في المجتمع؛ لم تكن ممنوعة، ولكن لم تكن هناك حاجة إليها، ولم يكن (جوناس) يُبالي بالنظر إلى نفسه حتى وإن صودف في مكان فيه مرآة. ولكن بعدما رأى هذا الطفل وتعابير وجهه ذكرَ أن العيون الباهتة لم تكن فقط نادرة، بل أكسبت صاحبها نظرة مميزة -تُرى ما هي؟ لعله العمق، هذا ما قررته نفسه؛ كأن أحدهم أرسل نظره يطلب قاع نهر صاف، فأدرك أشياء متوارية لم يُكشف عنها بعدُ. لقد شعر بالحرج عندما أدرك أنه هو أيضًا لديه هذا المظهر.

ذهب إلى مكتبه يتظاهر أنه لا يحفل بالطفل. وعلى الناحية الأخرى من غرفته كانت أمه وأخته (ليلي) تقفان محنيتين على الطفل تنظران إلى الأب وهو يزيل عنه دثاره.

"تُرى ما اسم أداة ترويحه؟" سألته (ليلي) وهي تتناول المخلوق المحشو الذي كان موضوعًا إلى جانب الطفل.

نظر إليه أبوها وأجابها: "فرس البحر".

فضحكت (ليلي) وقهقهت من هذه الكلمة الغريبة على أذنيها. رددت الكلمة مرة أخرى ووضعت أداة الترويح مكانها، ثم نظرت إلى الطفل وهو يلوّح بذراعيه بعدما أُزِيل عنه الدثار.

"أظن أن الأطفال الجدد جميلون وُسماء"، قالتها (ليلي) وتنهدت، "أرجو أن يختاروا لي تكليف (الولّادة)".

قالت أمها بنبرة حادة تزجرها: "ليلي! لا تقولي ولّادة. ذلك تكليف ليس فيه شرف".

"ولكني كنت أحادث (نَاتاشا). تعرفين تلك الصبيّةَ ابنة العشر التي تجاورُنا؟ تقضي بعضَ أوقات تطوعها في (مركزِ الولادة). أخبرتني أن الولّادات يُقدم إليهن طعامًا طيّبًا لذيذًا، وفترات تدريبهن خفيفة، وأكثر وقتهن يقضينه لعبًا وتمتعًا حتى يضعن حملهن. أظن أن ذلك يروقني"، قالتها بغضب طفولي ساذج.

قالت أمها بحزم: "ثلاث سنين، ثلاث ولاداتٍ وينتهي كلُّ ذلك. بعدها يصرنَ عاملاتٍ طوال حياتهن، يظللن كذلك حتى يُفضين إلى دار المسنين. أذلك ما تريدينه يا (ليلي)؟ تريدين أن تنعمي ثلاث سنين في خمول ودعة، ثم تقضي سنينًا وسنينًا في أشغال بدنية شاقة حتى تصبحي عجوزًا؟".

اعترفت ليلي على تردد منها قائلة: "لا، لا أظن ذلك".

قلب أبوها الطفل على بطنه في السلة وقعد إلى جانبه وطفق يمسح ظهره الصغير مُقبلًا مُدبرًا وقال يداعبها: " الولّادت لا يرين الأطفال مطلقًا. إن كنت كما تقولين تستمتعين بالأطفال فخيرٌ لك أن تطمحي في تكليفِ (الحاضنة)".

اقترحت أمها قائلة: "حين تبلغين الثامنة وتبدئين ساعات تطوعك تستطيعين أن تقضي بعض ساعاتك في مركز الحضانة".

قالت (ليلي) "نعم، سأفعل". انحنت على السلة تنظر وقالت: "ما كان اسمه؟ (جابرييل)؟ مرحبًا يا (جابرييل)"، قالتها بنغمة ثم قهقهت ضاحكة وهمست قائلة: "ويحي، أظنه نائمًا. خيرٌ لي أن أسكت".

مضى (جوناس) إلى مكتبه لينتهي من واجبه المدرسي، ثم قال في نفسه معقّبًا على كلامها: "ليتها تسكت ولو قليلًا". لم تكن (ليلي) تفتر

عن الكلام قط. ربما ينبغي لها أن تسعى إلى تكليف (المذيع)، فتجلس إلى اللاقط* على مكتب المذيعين وتُصدر بيانات للمواطنين. ضحك ضحكة مكتومة وهو يتخيّل أخته تتحدث بصوت رتيب كذلك الصوت المتغطرس الذي يتحدث به كل المذيعين فتقول أشياء مثل: تنبيه. **هذه تذكرةٌ للإناث اللاتي تحت التسع: تربط شرائط الشعر بإحكام في جميع الأوقات.**

التفتَ إلى (ليلي) فتبسّم حين وجد شرائطَها محلولة متدلية كما هو دأبها. سيخرج بيانٌ كهذا قريبًا جدًّا، كان موقنًا بذلك، وسيكون البيان موجّهًا إلى (ليلي) خاصة، على أنَّ اسمها لن يُذكرَ فيه. وسيعرف المواطنون جميعًا أنه موجه إليها.

وردت على خاطر (جوناس) ذكرى أثارت في نفسه الخزي، حين عرف الناسُ جميعًا أنَّ ذلك البيان: تنبيه. **هذه تذكِرة للذكور أبناء الإحدى عشرة: لا يجوز إزالة الأشياء من منطقة الترفيه، ويجب تناول الوجبات الخفيفة وليس ادخارها.** كان موجهًا إليه خاصة، يومَ أنْ أخذ تفاحة معه إلى البيت الشهر الماضي. لم ينبس بذلك أحدٌ، ولا حتى أبواه، فقد كفى بالبيان العام مُؤنِّبًا. تخلّصَ (جوناس) من التفاحة واعتذر صباح اليوم التالي إلى مدير الترفيه قبل ذهابه إلى المدرسة.

قلّبَ (جوناس) هذا الحادث في رأسِه مرّة أخرى. ظل هذا الحادث يحيّره. لم يكن يحيّره البيانُ نفسُه أو الاعتذارُ الذي كان مفروضًا عليه؛ فهذان إجراءان لم يكن منهما بد، وقد استحقهما، وإنما كان الحادث نفسه هو الذي أثار في نفسه الحيرة. ظنَّ أنه كان عليه أن يُفضي بشعور الحيرة هذا في ذلك المساء الذي أفصحت فيه وحدته الأسرية عن

* اللاقط هو الميكروفون.

مشاعرها. ولكنّه لم يستطعْ أن يفهم مأتى هذه الحيرة ولا أن يُبِيْنَ عنه بكلمات، لذلك آثر ألا يبوح به.

لقد حدثت تلك الحادثة وهو يلعب مع (آشر) في وقت الترفيه. فقد أخذ تفاحةً من السلة حيث توضع الوجبات الخفيفة، ورماها إلى صديقه. فردها إليه (آشر)، ثم طفقا يلعبان لعبة رمي الكرة.

لم يكن هناك شيء مميز حول هذه اللعبة؛ إنما كان نشاطًا اعتاد (جوناس) مزاولته مرات ومرات، يظل يرمي ويلتقط؛ يرمي، ويلتقط. كان نشاطًا سهلًا عليه، بل مملًا، إلّا أن (آشر) كان يستمتع به؛ ذلك أنه يحسّن له مهارة التنسيق بين اليد والعين، التي كانت ضعيفة عنده قياسًا ببقية أقرانه.

فجأة يلحظ (جوناس) وهو يتبع بنظره مسار التفاحة في الهواء، أن التفاحّة -وكان هذا هو الشيء الذي لم يستطع فهمه- تغيّرت. تغيّرت للحظة يسيرة. ذكر أنها تغيّرت في الهواء، ثم سقطت على يده فنظر فيها يتفرسها، ولكنها كانت هي هي. دون تغيير. الحجم حجمها والهيئة هيئتها. حتى درجة لونها كانت نفس الدرجة الباهتة الرتيبة التي على سترته*.

لم يكن في هذه التفاحة شيء مميز. جعل يرميها بين يديه بضع مرات ثم رماها إلى (آشر) مرة أخرى فإذا هي تتغير في الهواء، ولكن ما هي إلا طرفة عين حتى عادت إلى شكلها.

تكرر ذلك أربع مرات. فعجب (جوناس) وطرف بعينيه ونظر حواليه، ثم اختبر نظره محدّقًا في الخط الصغير المكتوب على بطاقة

* ترجمة لكلمة Tunic، وهي سترة نظامية طويلة، ضيقة الملبس، عالية الياقة، وكثيرا ما تكون متواضعة لا نقش فيها ولا ألوان مركبة. (قاموس ويبستر)

التعريف المثبّتة في سترته، فإذا هو يقرأ اسمه بوضوح وبيان. ثم إنه استطاع أن يرى شخصَ (آشر) بجلاء وهو واقف بعيدًا لدى الجانب الآخر من مكان الرمي، وكان التقاط التفاحة عليه سهلًا يسيرًا.

ملكه الغموض وأحاطت به الحيرة فصاح ينادى: "(آش)؟ ألا تستغرب شيئًا؟ في التفاحة؟".

صاح وهو يضحك: "بلى. تقفز من يدي وتسقط على الأرض!" قالها بعدما سقطت من يده مرة أخرى.

فضحك (جوناس) لضحكه محاولًا تناسي اعتقاده الذي يزعجه، وهو أنّ في التفاحة شيئًا قد تغيّر. ولكنه أخذ التفاحة معه إلى البيت مخالفًا قوانين مكان الترفيه. ومكث يقلبها بين يديه يمعن النظر فيها ذلك المساء قبل أن يصل أبواه و(ليلي) إلى المسكن. تكدّمت التفاحة من كثرة ما أسقطها (آشر). ولكن لم يكن فيها شيء غريب.

تناول عدسة مكبرّة وصوّبها عليها ينظر. ثم بدا له أن يرميها مرات عديدة في أنحاء الغرفة وهو واقف يترقب، ثم طفق يديرها على سطح مكتبه لعل ذلك الشيء يحدث مرة أخرى.

ولكنه لم يحدث. لم يحدث إلا ذلك البيان الذي أذاعه المذياع، ذلك البيان الذي قصده هو خاصة دون أن يذكر اسمه، ذلك البيان الذي جعل أبويه ينظران إلى مكتبه حيث مكثت التفاحة نظرة ذات دلالة.

والآن -وهو جالس على مكتبه سارحًا ينظر إلى واجبه وأسرته مجتمعة حول الطفل الجديد الذي كان في سلته- هز رأسه يحاول تناسي تلك الحادثة العجيبة. أكره نفسه على ترتيب أوراقه وأكبَّ على دروسه قليلًا قبل وجبة المساء. تحرك الطفل (جابرييل) متململًا

وبكى، فجعل أبوه يحدّث (ليلي) حديثًا رفيقًا يشرح لها طريقة إطعامه وهو يفتح الصندوق الذي يحوي الوصفة ومعدات الإطعام.

استمر المساء هادئًا، داعيًا إلى التأمل، كان زمنًا يجدد به المرء نشاطه ويستعد به للغد القادم كما هي عادة بقية المساءات التي تأتي على الوحدة الأسرية، وعلى المسكن، وعلى المجتمع كله. ولكن اختلف هذا المساء عن بقية المساءات في شيء واحد، ألا وهو وفود الطفل الجديد ذي العينين الباهتتين الجادتين العميقتين.

٤

قاد (جوناس) دراجته على مَهَلٍ ينظر إلى منافذ الدراجات بجانب المباني لعله يلمح دراجة (آشر). لم يكن يقضي ساعات تطوعه مع (آشر) لأن صديقه كان يمشي في أموره كيفما شاء ويجعل المهام الجادة صعبة. ولكن لم يعد ذلك مهمًا الآن وهم مشرفون على الثانية عشرة التي تنتهي بمجيئها ساعاتُ التطوع.

كان (جوناس) يرى حريةَ قضاء ساعات التطوع في أي شيء أراد المرءُ متعةً عظيمة؛ فبقية ساعات اليوم كانت مضبوطة ضبطًا دقيقًا.

ذكَرَ لمّا بلغ الثامنة -كما ستبلغها (ليلي) قريبًا- وكانت عنده هذه الحرية. أبناء الثماني في ساعاتهم التطوعية الأولى يضحكون ضحكًا يشوبه القلق ويمكثون في مجموعات حيث يكون أصحابهم. يكادون دومًا يقضون واجبهم الترفيهيّ أولًا، يُعينون الصبيان الذين يصغرونهم سنًا في أماكن تطمئن إليها نفوسهم. ولكن مع التوجيه، بعدما يصبحون أوثقَ وأنضج، ينتقلون إلى وظائف أخرى، حتى يُفضوا إلى وظائف تلائم ميولَهم وقدراتِهم.

لقد قضى ذَكَرٌ من أبناء الإحدى عشرة اسمُه (بِنجامين) سنينه الأربع في (مركز إعادة التأهيل)، يُعين المواطنين الذين أصابهم أذىً أو لحق بهم مكروه. وقيل إنه أصبح الآن في مهارة مديري المركز أنفسهم، بل إنّه طوّر بعض الآلاتِ والوسائل طمعًا في تقليص فترة التأهيل. لم يكن

هنالك شك في أنّ (بنجامين) سوف يتلقى مهمته في هذا التخصص، وربما يُسمح له بتجاوز معظم التدريب.

وقعت تلك الأشياء التي حققها (بنجامين) من نفس (جوناس) موقع الدهشة والعجب. كان يعرفه منذ كانا زميلين، ولكنهما لم يتحدثا قط في إنجازات الصبي، لأن محادثة كهذه قد يستنكرها (بنجامين). ولم يكن هناك طريقة آمنة يستطيع بها المرء ذكرَ نجاحاتِ امرئ آخر أو نقاشها دون خرق القانون الذي يمنع المفاخرة، حتى إن لم يكن المرء قاصدًا. كان أحد القوانين الصغرى، قانونًا ثانويًا مثله مثل قانون البذاءة، لا يُعاقب عليه إلا بتوبيخ يسير. ولكنْ يظل خيرًا للمرءِ أنْ ينأى بنفسه عن شيء يحكمُه قانون يسهل على الناس خرقه.

جاوز (جوناس) بدراجته مساكن المجتمع ينظر لعله يدرك دراجة (آشر) مركونة بجانب أحد المصانع الصغيرة أو أحد المكاتب. ظل كذلك حتى جاوز (مركز رعاية الطفل) حيث مكثت (ليلي) بعد المدرسة، وجاوز الملاعب التي تحيط به، ثم (الساحة المركزية) ثم (المَحْفَل) حيث تُقام الاجتماعات العامة، حتى إذا بلغ (مركز الحضانة) أَبطأ ينظر إلى بطاقات الأسماء المثبتة على الدراجات المصفوفة خارجه. ثم قصد إلى (مركز توزيع الطعام) يتفقد الدراجات هناك؛ كان (جوناس) تلَّذ له الإعانة على توزيع الطعام، رجا أن يجد صديقه هناك لعلهما يذهبان معًا في جولة ليحملا صناديق المؤونة إلى مساكن المجتمع. ولكن لما بلغ دار المسنين وجد أخيرًا دراجة (آشر) مائلة، كما هو دأبها، بدل أن تكون قائمة مُودعة في منفذها.

لم تكن هناك إلا دراجة أخرى، كانت لأنثى من أبناء الإحدى عشرة اسمها (فيونا). كان (جوناس) معجبًا بـ (فيونا). كانت تلميذة نجيبة،

هادئة حسنة الخلق، وكانت ظريفة كذلك، لم يفاجئْه وجودها اليوم مع (آشر). أودع دراجته في المنفذ بجانب دراجتيهما ودخل الدار.

"مرحبا جوناس"، قالتها موظفة الاستقبال وسلّمته كشف الحضور وطبعت ختمها بجانب إمضائه. كل ساعاته التطوعية ستُجدول في قاعة السجلات العامة. تهامس الصبيان فيما بينهم ذات مرة أن صبيًا من أبناء الإحدى عشرة ذهب إلى مراسم أبناء الاثنتي عشرة ليستمع إلى بيان علني أُعلم فيه أنه لم ينته من ساعاته التطوعية اللازمة ولذلك لن يُعطى تكليفه. أرجؤوه شهرًا إضافيًا ينتهي فيه من ساعاته ثُمّ أعطي تكليفه سرًّا، دون تصفيق، ودون احتفال: كان خزيًا كبيرًا قد دنّس مستقبله كله.

"جميلٌ أن لدينا متطوعين اليوم"، قالتها الموظفة. "احتفلنا بتسريح هذا الصباح، وهذا يعطل الجدول قليلًا، فتتراكم علينا المهام". قالتها وهي تنظر في كشف مطبوع. "على رسلك. (آشر) و(فيونا) يساعدان في غرفة الاستحمام. تريد مشاركتهما؟ تعرف مكان الغرفة، أليس كذلك؟".

أومأ (جوناس) أنْ نعم وشكرها ومشى في الدهليز. نظر نظرات خاطفة إلى الغرف التي على الجانبين. كان المسنون يجلسون في هدوء، بعضهم يزور بعض ويتحادثون، وبعضهم يعمل مشغولات يدوية ومصنوعات خفيفة، وبعضهم نائمًا. كانت كل غرفة مفروشة أثاثًا وثيرًا وسجادًا غليظًا. كان مكانًا تغشاه السكينة وتملأ أرجاءه التؤدة، لم يكن كمراكز التصنيع والتوزيع المزدحمة الصاخبة التي تُقضى فيها أعمال المجتمع اليومية.

سُرّ (جوناس) أنه اختار في السنين الماضية أن يقضي ساعاته التطوعية في أماكن متنوعة كيّ يتمكّن من رؤية الاختلافات بينها.

ولكنّه أدرك أن عدم التزامه تخصصًا واحدًا جعله لا يملك أي فكرة -ولا حتى أي تخمين- ما عسى أن يكون تكليفه.

ضحك ضحكة خافتة. أما زلت تفكر في المراسم مجددًا يا (جوناس)؟ قالها يسخر من نفسه. ولكن ساوره الشك لعل أصدقاءه كلهم مثله، تشغلهم المراسم ولا سيما مع حلولها القريب.

جاوز موظف رعاية يمشي بطيئًا في القاعة يَسْندُ أحد المسنات. "مرحبا يا (جوناس)"، قالها الشاب الذي يلبس بِزَّة نظاميةً وتضيء وجهه بسمة ودود. كانت المرأة المستندة إلى ذراعه تمشي محدودبة متثاقلة تجر قدميها في خُفِّها اللين الطري. نظرت ناحية (جوناس) وتبسّمت، ولكن كانت عيناها السوداوان عليهما غشاوة علم منهما أنها ضريرة.

دخل غرفة الاستحمام ذات الهواء الدافئ النديّ وريح المنظفات الطيبة، ثم خلع سترته وعلّقها بحذر على مشجب مثبت في الحائط، ولبس ثوب المتطوعين الذي كان مطويًّا على أحد الرفوف.

"مرحبا يا (جوناس)!" ناداه (آشر) من الزاوية حيث كان منحنيًا إلى جانب حوض استحمام. ورأى (فيونا) قريبًا منه تقف على حوض استحمام آخر. نظرت إليه وتبسّمت، ولكنّها كانت مشغولة تغسل برفق رجلًا مستلقيًا في الماء الدافئ.

حيّاهما (جوناس) هما وبقية موظفي الرعاية القريبين منه. ثم مشى قاصدًا كراسي الاتّكاء الوثيرة التي جلس عليها سائر المسنين ينتظرون. قد عمل هنا من قبل؛ كان يعلم ما عليه فعله.

"حان دورك يا (لاريسا)"، قالها وهو يقرأ بطاقة الاسم المثبتة على ثوب المرأة. "أفتحُ الماء ثم أساعدك" ضغط الزرَّ الذي كان على

حوض استحمام فارغ قريب ووقف يرقب الماء الدافئ وهو يتدفق من الفتحات الصغيرة التي على الجوانب. ما هي إلا دقيقة ويُملأ الحوض ويتوقف تدفق الماء وحده.

أعانها على القيام من الكرسي وقادها إلى الحوض وخلع ثوبها وأسندها ممسكًا بذراعها وهي تدخل إلى الحوض وتُخفض نفسها. أسندت ظهرها وتنهّدت في سرور واضعة رأسَها على مسند مُبطّنٍ وثير.

"مرتاحة؟" سألها، فأشارت برأسها وعيناها مغمضتان أنْ نعم. عَصَرَ (جوناس) المنظِّفَ على إسفنجة نظيفة وراح يغسل جسمها الهزيل.

كان قد شاهد أباه الليلة الماضية وهو يُحمِّم الطفل الجديد. كان تحميمه إياها فيه نفس الجِلد الهزيل والماء اللطيف وحركة اليد الرفيقة التي تزلق على الجسم من أثر الصابون. ذكّرته البسمة المطمئنة المسالمة المرسومة على وجهها بـ (جابرييل) أثناء تحميمه.

ونفس العورة المتكشفة كذلك. منعت القوانين أن ينظر صبيان المجتمع أو الراشدون إلى عورة الآخر؛ ولكن سُرَّ (جوناس) لأن ذلك القانون لم يسرِ على الأطفال الجدد ولا المسنين. كان صعبًا أن يظل المرء حاجبًا عورته وهو يغيّر ملابسه قبل المباريات، وكانت العبارة الاعتذارية -إن لمح امرؤ عورة آخر خطأً- مخجلة محرجة. لم يفطن لِم كان هذا القانون ضرورة. أعجبه شعور الأمان ههنا في هذه الغرفة الدافئة الهادئة؛ وأعجبته الثقة التي ارتسمت على ملامح المرأة وهي مسلتقية في الماء مكشوفةً متجردةً مطمئنة.

لمح (فيونا) بطرفه تساعد الرجل المسن على الخروج من الحوض وتُرَبّت بلطف على جسمه النحيل العاري مستعملة قطعة قماش تمتص السوائل، ثم ألبسته ثوبَه.

ظن (جوناس) أن (لاريسا) غلبها النوم، كما هي عادة المسنين، فحرص أن يبقي حركاته لطيفة مُطّرِدة لئلا يوقظها. تفاجأ حين حرّكت شفتيها تتكلم وعيناها لا تزالان مغمضتين.

"احتفلنا صباح اليوم بتسريح (روبرتو)"، قالت تقص عليه: "وكان تسريحًا رائعًا".

قال (جوناس): "أنا أعرف (روبرتو)! ساعدت في إطعامه المرة الماضية التي كنت فيها ههنا، منذ أسابيع قليلة. كان رجلًا لطيفًا جدًّا".

فتحت (لاريسا) عينيها في فرح وقالت: "قصوا عليه حياته كلها قبل أن يُسَرِّحوه، كذلك يفعلون دومًا. ولكن لا أكتمك"، همست إليه بنظرة خبيثة، "بعض القصص مملة، حتى إني رأيتُ بعض المسنين قبل تسريح (إدنا) يغشاهم النوم، أكنتَ تعرف (إدنا)؟".

هز (جوناس) رأسه نافيًا. لم يكن يذكر شخصًا يُدعى (إدنا).

"حاولوا أن يُضفوا معنى على حياتها. أنا"، أضافت مُصححةً، "لا أقول إنَّ حيوات الناس ليست ذات معنى. ولكن (إدنا). يا للهول. كانت تعمل (ولّادة)، ثم انتقلت إلى العمل في إنتاج الطعام أمدًا طويلًا، حتى أفضى بها الحال إلى هنا. كانت وحيدة، لم يكن لها وحدة أسرية قط".

رفعت (لاريسا) رأسها وتلفتت حولها حذرة لتطمئن أنْ لا أحد يسمعها ثم قالت: "لا أظن أن (إدنا) كانت امرأة ذكية".

ضحك (جوناس) وتناول يُسراها وصب عليها الماء ثم أعادها وشرع يغسل قدميها.

همهمت مغتبطة مستمتعة وهو يُدلّك قدميها بالإسفنجة.

استكملت كلامها بعد هُنَيّة تقول: "ولكن كانت حياة (روبرتو) رائعة، قد كان يعمل مُعلمًا لأبناء الإحدى العشرة -وأنت تعلم أهمية تلك الوظيفة- وكان عضوًا في لجنة التخطيط. ثُمَّ إنه -ويا عجبًا! لا أدري كيف استطاع أن يجد وقتًا- ربّى صبيين نابغين، وهو الذي صمم المنظر الطبيعي حول الساحة المركزية. ولكن لم يكن هو الذي حمل على عاتقه عبء العمل الشاق".

"والآن ظهرك. ميلي إلى الأمام وسأعينك على الجلوس". أحاطها (جوناس) بذراعيه وسَنَدَها وهي تجلس. عصر الإسفنجة على ظهرها وشرع يحك كتفيها الناتئتين. "أخبريني عن الاحتفال".

"قصوا عليه حياته. هذا دائمًا يأتي أولًا. ثم يأتي ثانيًا شربُ النّخب. أزلنا نظارّاتنا وحييناه. وأنشدْنا النشيد. وخَطَبَنا خطبة وداع عذبة جميلة. وخطب كل واحد منا خطبة قصيرة رجونا له فيها الخير، إلا أنا لم أفعل؛ ما كنتُ قط مولعة بالخطابة".

"كان فرحًا متهللًا لابسًا ثوب السعادة، ليتك رأيت النظرة التي كانت على وجهه حين تسريحه".

تباطأ (جوناس) في تدليكه مُطرقًا يفكر وقال يسألها: "(لاريسا)، ماذا يحدث حين ينتهون من التسريح؟ إلى أي مكان ذهب (روبرتو)؟".

هزت كتفيها المبلولتين العاريتين هزة يسيرة وقالت: "لا أدري، ولا أظن أحدًا يدري، إلا لجنة التسريح. انحنى لنا يُحيّينا ثم مضى، كما يفعلون كلهم، من الباب المخصص لهم في غرفة التسريح. ليتك رأيت النظرة التي كانت على مُحيّاه. إن كنتُ لا بد واصفة إياها فأقول كانت سعادة خالصة لا تشوبها شائبة".

تبسّم (جوناس) ضاحكًا وقال: "ليتني كنت حاضرًا كي أراها".

عقدت (لاريسا) حاجبيها وقالت: "لا أدري لِمَ لا يسمحون للصبيان أن يحضروا. لعل (غرفة التسريح) لا تسعهم. ينبغي لهم توسيعها".

قال (جوناس): "هلّا اقترحنا هذا على اللجنة. لعلهم يدرسون المسألة"، قالها (جوناس) بنبرة خبيثة فانفجرت (لاريسا) ضحكًا.

صاحت ساخرة: "صدقت!"، ثم أعانها (جوناس) على الخروج من الحوض.

٥

لم يكن (جوناس) يكثر مشاركة أفراد أسرته طقس قصِّ الأحلام الصباحي. كان قليلًا ما يحلم. أحيانًا يستيقظ من نومه وفي ذهنه قطع أحلام متناثرة، ولكنّه لم يستطع أن يستوعبها ويضمَّ بعضَها إلى بعض ليَخرُجَ له شيءٌ يستحقُّ القص عليهم.

لكن كان هذا الصباح مختلفًا. فقد حلم الليلة الماضية حلمًا واضحًا جليًّا كفلق الصبح.

نزح فكره وسرح عقله و(ليلي) تقص حلمًا طويلًا كعادتها، كان حلمها ذاك مُخيفًا مروّعًا إذ ركبت فيه، مُخالفةً للقوانين، دراجة أمها حتى ألقى القبض عليها حرّاسُ الأمن.

أنصتوا إليها وناقشوها التحذير الذي يحذرها منه الحلم.

"شكرًا لكِ أن قصصتِ علينا حلمك يا (ليلي)". لفظ (جوناس) العبارة الاعتذارية عفوًا، وحاول أن يعير انتباهه إلى أمه وهي تقص عليهم قسطًا من حلمها، كان مشهدًا مزعجًا قد وبِّخَت فيه لأنها خرقت قانونًا لم تكن تفهمه. فأجمع أفراد أسرتها على أن ذلك الحلمَ ربما كان سببه تلك المشاعر التي ألمّت بها لمّا أنزلت -وهي كارهةٌ- العقابَ بذلك المواطن الذي خرق القوانين العُظمى للمرة الثانية.

قال الأب إنه لم يحلم شيئًا.

"وأنت يا (جيب)، هل عندك أحلام تريد أن تقصَّها؟" سأله الأب وهو ينظر إلى السلة أسفله حيث استلقى الطفل بعدما طَعِمَ يقرقر مسرورًا، يتنظر أن يُؤخذ إلى مركز الحضانة ليقضي الفترة الصباحية هناك.

ضحكوا جميعًا؛ فطقس قص الأحلام يبدأ من سن الثالثة. ولا يدري أحدٌ هل يحلم الأطفال الجدد كالصبيان والراشدين أم لا.

"وأنت يا (جوناس)؟" سألته أمه، كانوا دومًا يسألونه، على علمهم أنه قليلًا ما يحلم.

"قد حلمت الليلة الماضية"، أخبرهم (جوناس) وغيّرَ جِلسته عاقدًا حاجبيه.

قال أبوه: "جميل، قص علينا".

"أجزاؤه ليست واضحة، لا أخفيكم"، بيّن لهم (جوناس) وهو يحاول استحضار ذلك الحلم العجيب. "أظنني كنت في غرفة الاستحمام في دار المسنين".

أشار إليه أبوه قائلًا: "هذا حيث كنتَ أمس".

أومأ (جوناس) موافقًا وقال: "ولكن لم يكن هو هو، كان هناك في الحلم حوض استحمام. ولكن حوض واحد فقط، وكانت الغرفة دافئة رطبة، وكنت خالعًا سترتي، ولكن لم أكن لابسًا لباس المتطوعين، لذلك كان صدري عاريًا. وكنت أتصبب عرقًا، لأن الغرفة كانت دافئة ساخنة. وكانت (فيونا) حاضرة، كما كانت أمس".

"و(آشر) كذلك؟".

هز (جوناس) رأسه مصححًا وقال: "لا. لم يكن إلا أنا و(فيونا)، وحدنا، نقف بجانب الحوض. كانت تضحك. أمّا أنا فلا. كنت غاضبًا قليلًا منها، لأنها لم تأخذني على محمل الجد".

"في أي شيءٍ لم تأخذك على محمل الجد؟" سألته (ليلي).

طأطأ (جوناس) رأسه ناظرًا إلى صحنه. استحت نفسه قليلًا لأمرٍ ما لم يفهمه. "أظنني حاولت أن أجعلها تدخل حوض الاستحمام".

أمسك عن الكلام وأطرق. علم أنَّ عليه أن يقص الحلم كله، فلم يكن ذلك صوابًا فحسب بل كان واجبًا. لذلك أكره نفسَه على قصِّ ذلك القسط الذي أزعجه.

قال: "أردتها أن تخلع ثيابها وتدخل الحوض"، ثم استكمل يعجل بكلامه: "أردتُ أن أُحمِّمَها. كانت الإسفنجة في يدي. ولكنّها أبَتْ عليَّ. ظلت تضحك وتقول لا".

رفع رأسه ونظر إلى أبويه وقال: "هذا كل شيء".

"هلا وصفتَ لنا أقوى شعور دَاخَلَك في الحلم يا بنيَّ؟" سأله أبوه.

أطرق (جوناس) لحظةً. كانت أجزاء الحلم ضبابية غامضة. ولكن كانت المشاعر واضحة هاجت عليه الآن مرة أخرى وهو صامت يفكر. قال: "الرغبة. كنت أعلم أنها لن تدخل، وأظن أنه ما كان عليها أن تدخل. ولكني كنت أحترق رغبةً. أحس الرغبة كانت تجري في جسمي جريًا".

"شكرًا لك أن قصصت علينا حلمك يا (جوناس)"، قالتها أمه بعد سكوت يسير ونظرت إلى أبيه.

"(ليلي)، حان موعد ذهابك إلى المدرسة. هلا صحبتِني هذا الصباح، أريدك أن تراقبي سلة الطفل. لا تنم عيناك عنه، لا نريده أنْ يَسقطَ منها".

قام (جوناس) يجمع كتبه المدرسية. عَجِبَ أنهم لمْ يتبسطوا معه في الحديث قبلَ عبارة الشكر. لعلهم رأوه حلًما مُحيّرًا كما رآه هو.

"مهلًا يا (جوناس)"، قالتها أمه بلطف. "سأكتب اعتذارًا لمعلّمك لئلا تُضطرَ إلى الاعتذار العلني عن تأخرك".

رمى بظهره على كرسيه حيرانَ مضطربًا. حيَّا أباه وأخته وهما يغادران المسكن مصطحبين (جيب) معهما محمولًا في السلة. راقب أمه وهي تجمع بقايا وجبة الصباح وتضع الصينيّة لدى باب البيت ليأخدها (طاقم جمع الطعام) وهو يُطوِّف المجتمع.

ثم جلست أخيرًا إليه على الطاولة وقالت وهي تتبسم: "(جوناس)، تعلمُ ما كان هذا الشعور الذي وصفته بالرغبة؟ هذه أولى (إثاراتك). كنا نتوقع أنا وأبوك أن تأتيك قريبًا. هي تأتي الناس كلهم. وقد أتت أباك لمّا كان في مثل عمرك. وأتتني أنا كذلك. وسوف تأتي (ليلي) يومًا ما".

ثم قالت تشفع كلامها: "وتبدأ مع أكثر الناس بحلم".

إثارات. قد سمع (جوناس) هذه الكلمة من قبلُ. ذكرَ أنه كان هناك ذِكرٌ لكلمة الإثارات في كتاب القوانين. ولكنّه لم يستطع ذكرَ ما ورد في شأنها. وكان المذياع يذكرُها بين الفينة والفينة. **تنبيه، هذه تَذكِرة، يجب الإبلاغ عن (الإثاراتِ) قريبا كي يَبدأَ العلاجُ.**

كان دأبُه تجاهلَ هذا البيان لأنه لم يكن يفهمه وما كان يظهر أنه ينطبق عليه. كان يتجاهل، كما يفعل أكثر المواطنين، كثيرًا من الأوامر والتذاكر التي تخرج من المذياع.

سأل (جوناس) أمه: "هل عليَّ أن أبلّغ عنها؟".

ضحكتْ أمه وقالت: "قد فعلتَ، في طقس قص الأحلام. وهذا يكفيك".

"وما أمر العلاج؟ (المذيع) يقول إن العلاج يجب أن يبدأ". ابتأس (جوناس). أمع دنو مراسم أبناء الاثنتي عشرة، يُضطر إلى الذهاب إلى مكان ما آخر ليأخذ العلاج؟ كل ذلك من أجل حلم تافه؟

ولكن ضحكت أمه مجددًا ضحكة تطمئنه بها وتلاطفه وقالت: "لا، لا، إنما هي حبوب. أنت الآن فقط جاهز لتناول الحبوب. هذا هو علاج (الإثارات)".

استنار وجهه بشرًا وسرورًا. كان يعلم بأمر الحبوب. كان أبواه يأخذانها كل صباح. وكذلك بعض أصدقائه. ذات يوم وهو قاصد المدرسة مع (آشر)، كلٌ على دراجته، سمع أبا (آشر) يصيح على مدخل الباب قائلًا: "نسيتَ حبوبك يا (آشر)!" تذمّر (آشر) مازحًا وأدار دراجته وانكفأ راجعًا ووقف (جوناس) ينتظره.

كان ذلكَ من الأشياءِ التي يتحرَّجُ المرءُ أنْ يسألَ فيها صديقَه خشية أن يتهم بتهمة "السؤال عن شيء مختلف". تناول (آشر) حبةً واحدة كل صباح؛ ولكن (جوناس) لم يفعل. كان خيرًا للمرء في المجتمع، وأقل بذاءة، أن يحادث الآخرين في الأشياء المشتركة لا المختلفة.

بلع (جوناس) الحبة الصغيرة التي أعطته إياها أمه.

سألها: "أهذا كل شيء؟".

"نعم هذا كل شيء"، أجابته وهي تعيد القنينة إلى خزانة الكؤوس والأطباق. "ولكن لا تنسَ تناولها. سأذكرك في الأسابيع الأولى، ولكن عليك أن تتذكرها وحدك. إن نسيتَ عادت إليك (الإثارات) مرةً أخرى هي والأحلام. أحيانًا قد تحتاج إلى ضبطِ الجرعة المطلوبة".

"(آشر) يتناولها"، أفضى (جوناس) إليها.

أومأت أمه دون دهشة. "كثير من زملاء مجموعتك كذلك. الذكور، على الأقل. وسيتناولونها كلُّهم قريبًا، ذكورًا وإناثًا".

"ملزم أنا بتناولها؟".

بيّنت له قائلة: "حتى تنتهي إلى دار المسنين، تظل هكذا طوال حياتك. ولكنها تصير عادة؛ سيأتي عليك زمانٌ تتناولها دون أن تنتبه حتى".

نظرت إلى ساعتها وقالت: "إن غادرت الآن، لن تصل المدرسة متأخرًا. هيّا".

وأضافت بعدما أصبح لدى الباب: "وشكرًا لك مرة أخرى يا (جوناس)... لقصِّك الحلمَ".

شعر (جوناس) -وهو راكب دراجته يدفع برجليه مسرعًا- بفخر غريب أنْ أصبح في زمرة الذين يتناولون الحبوب. وإذا بذلك الحلمُ يهاجمه مرة أخرى. كان الحلم مثيرًا ممتعًا. وعلى أن المشاعر كانت معقدة ظن (جوناس) أنه استمتع بتلك المشاعر التي سمّتها أمه إثارات. ذكر أنه حين قامَ من نومه أراد أن يستمتع بتلك الإثارات مجددًا.

ثمَّ غابَ الحلمُ عن ذهنه كما غاب مسكنه من ورائه حين مال بدراجته إلى منعطف الطريق. حاول -وهو يشعر ببعض الذنب- أن يسترجع الحلم. ولكن المشاعر كانت قد اختفت، واختفت باختفائها (الإثارات).

مكتبة
t.me/soramnqraa

٦

"(ليلي)، رجاءً اثبتي"، قالتها الأم مجدداً.

تململت (ليلي) ضجرًا وقالت تشتكي: "أستطيع ربطها وحدي، كذلك أفعل دائمًا".

قالت الأم وهي تُقيم شرائطَ الشعرِ على ضفائر البُنيّة: "أعلم. ولكنني أعلم كذلك أنها دائمًا ما تنحلُّ ثم تدلى على ظهرك في الظهيرة. ونحن اليوم، على الأقل، نريدها مربوطة ربطًا محكمًا وتظل هكذا".

"أنا لا تعجبني شرائط الشعر. مسرورة أني مضطرة إلى لُبسِها سنة واحدة فقط"، قالتها (ليلي) متأففة. وشفعت كلامها بفرح أكبر تقول: "والسنة القادمة أحصل على دراجتي كذلك".

"هناك أشياء حسنة في كل سنة"، ذكّرها (جوناس).

"هذه السنة تبدئين ساعات تطوعك. ألا تذكرين السنة الماضية لمّا بلغتِ السابعة، ألم تكوني سعيدةً أنْ حصلتِ على الجاكيت ذي الأزرار الأمامية؟".

أومأتْ البنيّةُ موافقة ونظرتْ إلى نفسها تحدّق في الجاكيت ذي الأزرار الكبيرة المصفوفة الذي أدخلها في زمرة أبناء السبع. لبس أبناء الأربع والخمس والست جاكيتات تُربط من الخلف ليساعدَ كلٌ الآخر فيتعلموا بذلك اتكال بعضهم على بعض.

كان الجاكيت ذو الأزرار الأمامية أولى علامات الاستقلال، أول علامةٍ دالةٍ على النضوج. أمَّا الدراجة، التي تُعطى في التاسعة، فعلامة بيِّنة على الانتقال شيئًا فشيئًا إلى المجتمع والابتعاد عن حِمى الوحدة الأسرية.

تبسّمت (ليلي) ضاحكة وتفلتت من أمها.

"وهذه السنة تُعطي تكليفَك"، قالتها لـ (جوناس) بنبرة كلها حماس. "آمل أن تُعطى تكليف (الطيار) وتصحبني معك لنطير!".

"سأفعل بالتأكيد، وسأحضر مظلة صغيرة خاصة على قدرِك وطولِك وأصعد بك في السماء إلى نحو مائتي ألف قدم ثم أفتح باب الطائرة، و...".

"(جوناس)"، نادته أمه تحذره.

"كنت أمازحها فقط"، قالها متذمرًا. "أنا لا أريد تكليف (الطيّار). إن أُعطيتُه فسوف أطلب استثنافًا".

"هيَّا"، قالتها الأم وشدّت شرائط (ليلي) شدة أخيرة. "(جوناس)؟ جاهز؟ تناولتَ حبّتك؟ هيّا، أريد أن أدرك مقعدًا متقدمًا في (المحفل)". حثَّت (ليلي) إلى الباب وتبعهما (جوناس).

كان ركوبًا قصيرًا إلى (المحفل)، لوّحت (ليلي) بيدها إلى أصحابها وهي جالسة خلف أمها على مؤخر دراجتها. أودع (جوناس) دراجته إلى جانب دراجة أمه ومضى وسط الحشد يبحث عن مجموعته.

ولكن الأب لم يجلس هذه الساعة إلى جانب الأم في مقاعد المتفرجين؛ ذلك أنَّ أول المراسم كانت مراسم التسمية التي يُحضر

فيها الحاضنون الأطفال الجدد إلى المنصة. أمّا (جوناس) فدار بنظره -من مكانه في الشرفة حيث جلس ينتظر مع بقية أبناء الإحدى عشرة- يبحث عن أبيه. لم يعسر عليه أن يدرك مكان قسم الحاضنين الذي كان في المقدمة؛ فقد صدر منه عويل الأطفال وصراخهم، كلٌ جالس في حَجْرِ حاضنه يتلوَّى شِكايةً. يجلس المتفرجون في المراسم الأخرى صامتين منتبهين لا يطرفون، ولكن يحملهم على التبسم كل سنة صخب الأطفال الذين ينتظرون الحصول على أسمائهم وأسرهم.

ظل (جوناس) يلوّح بيده حتى لمحه أبوه فتبسم وحيّاه بيده ورفع يد الطفل الذي كان يحمله وحياه بها أيضًا.

لم يكن ذلك الطفل هو (جابرييل)؛ فقد كان (جيب) هنالك في مركز الحضانة تحت رعاية الطاقمِ الليلي. أعطته اللجنةُ مُهلة استثنائية خاصة ومنحته سنة حضانة إضافيةً قبل تسميته وتسليمه. لقد تقدّم أبوه بالتماس إلى اللجنة بالنيابة عن (جابرييل) الذي لم يبلغ بعدُ وزنًا يناسب عمرَه ولم يبدأ بنوم لياليه نومًا عميقًا يؤهله لأن يُسلّم إلى أسرته. العادة في هذه الحالات أن يُصنّف الطفل (غيرَ ملائمٍ) ويُسرَّح من المجتمع.

ولكن حملهم التماس الأب على تصنيفِه (محلَّ شك)، ومنحِه تلك السنة الإضافية. على أنْ تستمر رعايته في المركز، ويقضي لياليه مع وحدة (جوناس) الأسرية. ولكن كان على كل فرد من أفراد الأسرة أنْ يأخذَ على نفسه عهدًا ألا يتعلقَ بهذا الضيف الصغير المؤقت، وأنْ يتخلّى عنه دون مقاومة أو طلب استئناف حين يوزّع على وحدته الأسرية في مراسم السنة المقبلة.

ظنَّ (جوناس) أنهم في أسوأ الظروف يستطيعون رؤية (جابرييل) بعد تسليمه إلى أسرته السنة المقبلة، لأنه سيصبح حينئذ جزءًا من

المجتمع. ولكن إن سُرّح فلن يستطيعوا رؤيته مجددًا. أولئك الذي يُسرّحون -ولو كانوا حديثي الولادة- يرسلون إلى (أرض المجهول) ولا يعودون أبدًا إلى المجتمع.

لم يكن الأبُ مُضطرًا إلى تسريح أي طفل جديد هذه السنة، لذلك إن سرح (جابرييل) فسيمثل ذلك له خيبة عظيمة وحزنًا عميقًا. حتى (جوناس) كان مسرورًا أن (جيب) لم يسرح، على أنه لم يرتبط به كـ (ليلي) وأبيه.

بدأت المراسم الأولى في وقتها، وجلس (جوناس) يشاهد طفلًا بعد طفل يُعطى اسمه ويُسلّم إلى وحدته الأسرية الجديدة. كان هذا أول طفل تحصل عليه بعضُ الوحدات الأسرية، ولكن أتتْ المنصةَ وحدات كثيرة معها صبيٌ آخر يتبسم فخرًا أنْ أصبحَ له أخ صغير أو أخت، كما كان (جوناس) حين كان موشكًا على بلوغ الخامسة.

غمز (آشر) ذراع (جوناس) وسأله وهو يهمس عاليًا: "ألا تذكر حين أُعطينا (فيليبا)؟" أومأ إليه (جوناس) إيجابًا. كان ذلك السنة الماضية. لقد انتظر أبوا (آشر) زمنًا طويلًا حتى يقدّما طلبَ الحصول على طفل ثان. مر بخاطر (جوناس) أنهما ربّما أرهقهما حمق (آشر) فأرادا فسحة من الوقت ليرتاحا.

كانت هناك صبيّتان من مجموعتهما -(فيونا) وأنثى أخرى اسمها (ثِيا)- غائبتين حتى حين، ينتظران مع آبائهما حتى يستلموا الطفلين. ولكن قليلًا ما كانت هناك هذه الفجوة العمرية الكبيرة بين صبيين من الوحدة الأسرية نفسها.

لمّا انتهت مراسم أسرتها، جلست (فيونا) على المقعد الذي خُلّيَ لها في الصفِّ الذي يلي صفَّ (آشر) و(جوناس). أدارت وجهها

إليهما وهمست قائلة: "طفل جميل. ولكن لا يعجبني اسمه". وصنعت بوجهها تعبيرًا مضحكًا وقهقهت. سُمّي أخوها الجديد (برونو). لم يُعجب (جوناس) اسمَه، كما أعجبه اسم... اسم (جابرييل) مثلًا. ولكنه رأى أنه اسم لا بأس به.

اشتعل تصفيقُ المتفرجين حين استلم أبوان -يشرق وجهاهما فخرًا- طفلًا جديدًا ذكرًا اسمه (كيليب).

كان هذا الـ (كيليب) طفلًا بديلًا. قد فقد أبواه قبلُ ابنهم (كيليب) الأول، كان صبيًّا مرحًا يبلغ من العمر أربع سنين. كان فقدان صبيٍّ نادرًا شحيحًا، ذلك أن المجتمع كان آمنًا جدًا، كان كل مواطن رقيبًا حريصًا على كل صبي. ومع ذلك ابتعد (كيليب) الصغير دون أن يلحظه أحد وسقط في النهر. حينئذ ردد المجتمعُ كلُّه معًا (مراسم الفقد)، يهمهون بين الفينة والفينة اسمَ (كيليب) على مدار يوم طويل كئيب، ويخفضون صوتهم في كل مرة عن التي قبلها، كان الصبي الصغير ابن الأربع إذ يصنعون ذلك كأنه يختفي رويدًا رويدًا من وعي المواطنين جميعًا.

والآن، أثناء هذه التسمية الخاصة، أدّى المجتمع (مراسم التبديل) القصيرة، يرددون اسم (كيليب) لأول مرة منذ الفقد ترديدًا خفيضًا بطيئًا في أوله ثم يرفعون الصوت ويسرّعونه. كان (كيليب) الأول إذ يصنعون ذلك كأنّه يعود إليهم مرة أخرى.

أُعطي طفل جديد آخر اسم (روبرتو)، فذكر (جوناس) أن (روبرتو) المسن لم يمضِ على تسريحه إلا أسبوع واحد، ولكن لم تكن ثَمَّ همهمة ولا مراسم تبديل لـ (روبرتو) الصغير. فالتسريح في المجتمع ليس كالفقد.

مكث صامتًا لا ينبس، يشاهد مراسم أبناء السنتين والثلاث والأربع، وكلما مرت سنة ازداد بمرورها مللًا. ثم كان هناك فسحةٌ لوجبة منتصف النهار ذهبوا خارجًا يتناولونها ثم عادوا إلى مقاعدهم ليشاهدوا مراسم أبناء الخمس والست والسبع ثم آخر مراسم اليوم، مراسم أبناء الثماني.

انتفض (جوناس) يهتف لأخته (ليلي) وهي تخطو بفخر نحو المنصة، بلغت الثامنةَ وتستلم الجاكيتَ الذي يميزها هذه السنة، كان جاكيتًا ذا أزرارٍ أصغرَ وكان -ولأول مرة- ذا جيوبٍ تشير إلى أنها نضجت نضوجًا يؤهلها الآن للاحتفاظ بممتلكاتها الصغيرة. وقفت جامدة تستمع إلى الإرشادات الصارمة حول مسؤوليات أبناء الثماني سنين، ومسؤوليات قضاء ساعات التطوع للمرة الأولى. ولكن لاحظ (جوناس) أن (ليلي)، على ما بدا عليها من انتباه، كانت سارحة تتأمل صفَّ الدراجات اللامعة التي يستلمها صباح غدٍ أبناء التسع.

"تستلمينها السنة القادمة يا ليلي بيلي وليس هذه السنة"، قالها (جوناس) يحدث نفسه.

كان يومًا طويلًا شاقًّا، حتى (جابرييل) -الذي أحضروه في سلّته من مركز الحضانة- نام نومًا عميقًا هذه الليلة.

وها قد أصبحَ صباحُ مراسم أبناء الاثنتي عشرة.

هذا اليوم جلس الأب إلى جانب الأم. لمحهما (جوناس) يصفّقان بحرارة وأبناء التسع يعتلون دراجاتهم واحدًا تلوَ الآخر من المنصة وكل دراجة على ظهرها بطاقة لامعة تحمل اسم صاحبها. علم (جوناس) أن أبويه امتعضا قليلًا، كما امتعض هو كذلك، حين استلم

(فريتز)، الذي يجاورهم في المسكن، دراجته واصطدم بها بجدار المنصة. كان (فريتز) صبيًّا أخرق قد استُدعي مرات ومرات للتوبيخ. كانت مخالفاته يسيرة، فمرة يلبس حذاءه في قدم مختلفة، ومرة يضيّع واجبَه المدرسي، ومرة يقصّر في الاستعداد للامتحان. ولكن كان كل خطأ من تلك الأخطاء يجر اللوم لأبويه على تقصيرهما في توجيهه، ويخرق نظام المجتمع ويفسد نجاحه. لم يرغب (جوناس) ولا أسرته في حصول (فريتز) على دراجة، إذ علموا أنها ربّما تكون أكثر الأوقات ملقاة على المَمَشى أمام المسكن بدل أن تكون مودعة في منفذها.

ثم أعيد أبناء التسع إلى مقاعدهم بعدما ركب كل صبي دراجته وتركها خارج المحفل ريثما يعود إليها في نهاية اليوم. كان كل الناس يضحكون ويتمازحون حين يقود أبناء التسع لأول مرة دراجاتهم إلى البيت، فتجد أصحابهم الذين يكبرونهم يصيحون قائلين: "تريدني أن أريك كيف تركبها؟ أعلم أنك لم تركب واحدة من قبل!" ولكنَّ أبناء التسع سرعان ما يركبون دراجاتهم ويقودونها في توازن مثالي؛ ذلك أنهم كانوا يتدربون عليها سرًّا لأسابيع مخالفين القوانين.

ثم جاءت مراسم أبناء العشر سنين. لم يستمتع (جوناس) بهذه المراسم قط، كان يراها وقتًا ضائعًا. كان يقص فيها شعور الصبيان كما هو مقرر: فتخسر الإناث ضفائرهن، ويترك الذكور كذلك شعورهم الطويلة الطفولية من أجل شعرٍ قصيرٍ يُبرز آذانهم ويظهر رجولتهم.

عمد العمال سريعًا إلى المنصة يحملون المكانس وأماطوا أكوام الشعر المقصوص. لاحظ (جوناس) آباء أبناء العشر يتململون ويهمهمون، وعلم أن على كثيرٍ منهم هذا المساء لأن يصلحوا ويسووا قصات الشعر التي قُصَّت قصًّا متعجلًا.

ثم جاء دور أبناء الإحدى عشرة. بدا كأنه لم يمر وقت طويل على حضور (جوناس) مراسم أبناء الإحدى عشرة الخاصة به. ولكنّه ذكر أنها ليست أكثر المراسم متعة. فحين يبلغ الصبي الحادية عشرة لا يفعل شيئًا إلا انتظار الثانية عشرة. لم تكن الحادية عشرة إلا مجرد محطة زمنية ليس فيها اختلافات ذات بال. استلمت فيها الإناث اللاتي بدأت أجسامهن تتغير ثوبًا تحتيًا جديدًا، واستلم الذكور سروايل أطول لها جيوب خِيطت لحفظ الآلة الحاسبة الصغيرة التي سيستعملونها هذه السنة في المدرسة؛ ولكن كانت تلك الآلات تسلم إليهم في صناديق ملفوفة دون خطبة تصحبها.

ثم كانت فسحةٌ لوجبة منتصف النهار. شعر (جوناس) أنه جائع. اجتمع هو وزملاءُ مجموعته على المائدة أمام المحفل وشرعوا يتناولون وجباتهم المعلّبة. كان هناك مرح كبير أمس على الغداء، كان الجو حافلًا بالنشاط مترعًا بالمزاح. ولكن اليوم كانت المجموعة تقف في قلق، منفصلة عن سائر الصبيان. وقف (جوناس) يراقبُ أبناء التسع الجدد ينطلقون نحو دراجاتهم التي كانت واقفة تنتظرهم، كلٌ ينظر في إعجاب إلى بطاقة اسمه. ورأى الذكور من أبناء العشر يتحسسون شعورهم التي قصّرت منذ قليل، والإناث يهززن رؤوسهن يجربن الخفة غير المعتادة دون الضفائر الثقيلة التي طالما حملنها.

همس (آشر) بصوت خافت وهم يأكلون قائلًا: "سمعت أن رجلًا كان موقنًا أنه سيُعطى تكليف (المهندس)، وبدلًا من ذلك أعطي تكليف (عامل النظافة). فخرج اليوم التالي من مسكنه وقصد النهر وقفز فيه وجاوزه سباحة، وانضم إلى أول مجتمع لقيه. ولم يره أحدٌ بعدها قط".

ضحك (جوناس) وقال: "هذه قصة مختلقة يا (آش)، أخبرني أبي أنه سمع هذه القصة وهو في الثانية عشرة".

ولكن لم يُثلج كلامه صدر (آشر) الذي كان جالسًا يرمق النهرَ الذي لاح له من وراء المحفل. قال: "أنا حتى لا أحسن السباحة، أخبرني المدرب، أني ليس لدي قابلية الطفح اللازمة أو شيءٍ من هذا القبيل".

فقال له (جوناس) مصححًا: "تقول طفح؟ طفو يا (آشر)، طفو".

"أيا كان. ليس لديَّ هذه القابلية. أنا أغرق دائمًا".

"هل عرفت أحدًا قط -أقصد عرفته حق المعرفة يا (آشر) وليس مجرد قصة سمعتها- انضم إلى مجتمع آخر؟".

اعترف (آشر) على تردد قائلًا: "لا، ولكن في وسعك الانضمام إلى مجتمع آخر. هذا ما تقرره القوانين. إن كنت (غيرَ ملائم) فلك أن تطلب الذهاب إلى (أرض المجهول) وتُسرّح. تقول أمي ذلك ذات يوم منذ عشر سنين، قدّم أحدُهم طلبًا، فقُبل، وسرحوه اليوم التالي". قالها وضحك ثم استكمل يقول: "أخبرتني بذلك لأني استفززتها، فهددتني أن تقدّم طلبَ ذهاب إلى (أرض المجهول)".

"كانت تمزح".

"أعلم. ولكن ما قالته كان صوابًا، وهو أن أحدهم صنع ذلك مرة. أكدت لي أن ذلك قد وقع. قدّمْ طلبًا اليوم تختفِ غدًا. دون رجعة. بل دون مراسم تسريح".

هز (جوناس) كتفيه استخفافًا؛ فذلك الأمر لم يكن يشغله، فكيف يكون أحد المواطنين (غير ملائم)؟ المجتمع كان منظمًا تنظيمًا دقيقًا،

والاختيارات كانت تتم بحذر بالغ.

بل حتى مطابقة الزوجين كانت تأخذ حظًا عظيمًا من النظر يُضطر منه أحيانًا الراشد الذي يقدّم طلبًا للحصول على زوج أن ينتظر شهورًا بل سنين قبل أن يُصدَّق على زوج مطابق له ويُعلنَ عنه. ولا بد أن تكونَ كلّ العوامل -الطبع، ومستوى النّشاط، والذكاء، والاهتمامات- متفقة ومتناغمة تناغمًا تامًا. فأم (جوناس) مثلًا كانت أذكى من أبيه؛ ولكنَّ أباه كان أهدأ طبعًا. فكلٌّ منهما يكمل الآخر. ونجحت مطابقتهما الزوجية التي راقبتها لجنة (الكهول) كما تراقب سائر الأزواج لثلاث سنين قبل أن يُسمح لهما أن يقدما طلبًا للحصول على أطفال.

وكانت لجنة (الكهول) تدقق في اختيار التكاليف تدقيقًا شديدًا كما تدقق في شأن مطابقة الزوجين وتسمية الأطفال الجدد وتسليمهم.

أيقن (جوناس) أن تكليفه، أيًّا ما كان، وتكليف (آشر) كذلك سيكونان أنسب تكليفين لهما. ولكنّه ودَّ فقط لو انتهت فسحةُ منتصفِ النهارِ ليعودَ المتفرجون إلى المحفل وينتهي هذا القلق الذي أحكم حلقاته عليه.

جاءت الإشارة كأنها تريد أن تنوّله أمنيته غير المعلنة فأنشأ الحشدُ يتحرك نحو الأبواب.

٧

اصطُحبت مجموعة (جوناس) إلى مكان مختلف داخل (المحفل)، مستبدلين أماكنهم مع أماكن أبناء الإحدى عشرة الجدد، فجلسوا في المقدمة بين يدي المنصة.

رُتّبت مجموعتهم على حسب أرقامهم الأصلية، تلك الأرقام التي أعطوها بعد ولادتهم. نادرًا ما استعملت تلك الأرقام بعد مراسم التسمية. ولكنَّ كلَّ صبي كان يعرف رقمَه. يستعملها تارة بعض الآباء إن استفزّتهم إساءة صبيّهم، إشارة إلى أنَّ سوء السلوك ينزع عن الصبيِّ استحقاقه للاسم. كان (جوناس) يضحك بينه وبين نفسه حين يسمع أبًا يَصْخَبُ* على طفل صغير يبكي وينتحب قائلًا: "كفى، يا (ثلاثة وعشرون)!".

كان (جوناس) رقمه (تسعة عشر). كان المولود التاسعَ عشرَ في سنته. وكان ذلك يعني أنّه حين تسميته كان يقف على رجليه مُدركًا يقظًا، مُشرفًا قريبًا على المشي والكلام. أكسبه ذلك ميزة في أول سنة أو سنتين، فقد كان أنضج قليلًا من كثير من زملاء مجموعته الذين ولدوا قبله ببضعة شهور. ولكنهم تساووا لاحقًا، كما هي العادة، حين بلغوا الثالثة.

ينمو الصبيان بعد الثالثة نموًا يكاد يكون متساويًا، ولكن يستطيع المرء بالنظر في أول رقم أن يعرف أيّهم ولد قبل الآخر. كان رقم

* يصخب على: يزجر ويغضب.

(جوناس) الكامل (أحد عشر - تسعة عشر)، ذلك أنَّه كان هناك صبيان في المجموعة نفسها يشاركونه رقم تسعة عشر.

واليومَ بعدما تقدّم أبناءُ الإحدى عشرة الجدد أصبحت هناك مجموعتان تتشاركان رقم (أحد عشر - تسعة عشر) نفسه. وفي فسحة منتصف النهار تبادل الابتسامات مع أنثى حييّة خجلة من أبناء الإحدى عشرة الجدد اسمها (هاريت).

ولكن لن يظل هذا التطابق الرقمي إلا ساعات قليلة. قريبا يبلغ (جوناس) الثانية عشرة ويترك الحادية عشرة، ثم لا يعود العمر بعدئذ مهمًا. سيغدو راشدًا كأبويه، ولكن راشدًا جديدًا لم يبدأ تدريبه بعدُ.

كان (آشر) رقمه (أربعة)، وكان يجلس في الصف الذي يلي (جوناس). سيحصل على تكليفه رابعًا.

أما (فيونا)، رقم (ثمانية عشر)، فقد كانت عن شماله؛ وكان رقم (عشرين) الذي عن يمينه ذَكَرًا يُدعى (بيري) لا يستسيغه (جوناس). كان شخصًا جادًا لا يمزح، كثير القلق، واشيًا كذلك. مال على (جوناس) وألقى في أذنه هذه الكلمات: "هل نظرت في القوانين يا (جوناس)؟" كانت نبرة (بيري) دومًا همسًا رسميًا: "لا أظن أن هذا من القوانين". كان الذي يشير إليه عادة شيئًا سخيفًا لا يحفل به حافل. كان يشير إلى حل بعض الصبيان أزرار ستراتهم في يوم رائق ذي نسيم عليل؛ ليجرّبوا دراجات أصدقائهم، ليس ذلك إلا ليستشعروا الاختلاف الذي فيها.

خطبت الخطبة الافتتاحية رئيسُ (الكهول)، ورئيس (الكهول) هو قائدُ المجتمع الذي يُنتخب كل عشر سنين. كانت الخطبة مكررة كل سنة، يذكر فيها أيام الطفولة وفترة الإعداد، ومسؤوليات حياة الراشدين، وعظم أمر (التكليف)، وخطورة التدريبات المقبلة.

ثم قالت وهي تنظر إليهم: "هذا وقت إقرار الاختلافات. لقد قضيتم يا أبناء الإحدى عشرة سنينكم كلها تتعلمون الانسجام في المجتمع وإقامة سلوككم على معاييره، وكذلك كبح جماح أي رغبة قد تفصلكم عن مجموعتكم. ولكننا اليوم نحتفي باختلافاتكم. لأنها رسمت لكم مستقبلكم".

وأنشأت تصف مجموعة هذه السنة وشخصياتها المتنوعة، ولكنها لم تُسمِّ أحدًا باسمه. ذكرت صبيًا ذا ملكة فريدة في الرعاية، وآخر شغوفًا بالأطفال الجدد، وآخر ذا موهبة علمية عجيبة، ورابعًا شغوفًا بالأعمال البدنية. غيّر (جوناس) جلسته وأعمل ذهنه يحاول أن يعرف أيًّا من زملائه قصدت بكل صفة أطلقتها. لا شك أن رئيسُ الكهول قصدت بصاحب تلك الملكة الفريدة صديقته (فيونا)؛ ذكرَ أيّام رأى ترفقها وهي تحمم المسنين. ولعل ذا الموهبة العلمية هو (بينجامين)، ذلك الذكر الذي ابتكر معدات مهمة جديدة لمركز إعادة التأهيل.

لم يكن شيءٌ مما ذكرتْ ينطبق على نفسه.

ثُم شكرت للجنتها الجهد العظيم الذي بذلته والطاقة التي بذلها أعضاؤها في مراقباتهم السنوية الدقيقة. قام كلُّ عضو من مجلسه وأُقِرَّ له فضله تصفيقًا. لاحظ (جوناس) صديقه (آشر) يتثاءب ويستر فمَه براحة يده في أدب.

ثم نادت رئيس الكهول أخيرًا رقم (واحد) وبدأ إعلان (التكاليف).

كان كل إعلان يستغرق وقتًا طويلًا، وتصحبه خطبة موجهة إلى الصبي الجديد ابن الاثنتي عشرة. حاول (جوناس) أن ينتبه ورقم (واحد) تستلم مُعتبطة مسرورة تكليفها، تكليف (موظفة مفقس

الأسماك)، وتسمع المدح والثناء على قضائها كثيرًا من ساعات تطوعها هناك، وعلى حرصها الواضح على توفير الغذاء للمجتمع.

عادت رقم (واحد) أخيرًا، وكان اسمها (مادِلين)، إلى مقعدها وسط تصفيق، تلبس الشارة الجديدة التي عيّنتها (موظفة مفقس أسماك). سُرَّ (جوناس) أن ذلك التكليف قد أخذ؛ لأنه لم يكن راغبًا فيه. ومع ذلك تبسّم لـ (مادلين) يهنّئها.

ولمّا قامتْ رقم (اثنين)، وكانت تُدعى (إنجر)، من مجلسها لتستلم تكليفها، تكليف (الولّادة)، ذكر (جوناس) حديث أمه حين قالت إنها وظيفة ليس فيها شرف. ولكنه علم أن اللجنة أحسنت الاختيار. كانت (إنجر) بنتًا لطيفة، ولكن فيها شيء من الكسل، وكان جسمها قويًا. ستستمتع بثلاث سنوات من التدليل تعقب تدريبها القصير؛ ثم تلد بيسر وعافية؛ وسوف تسخّر وظيفة (العاملة) قوتها، وتبقيها في صحة جيدة، وتفرض عليها ضبط النفس. رجعت (إنجر) إلى مقعدها باسمة. كانت وظيفة (الولادة) وظيفة مهمة وإن كانت قليلة الشرف.

لاحظ (جوناس) على (آشر) نظرات قلق. ظل يدير رأسه ينظر إلى (جوناس) حتى أشار إليه قائد المجموعة يوبِّخه أنْ اقعدْ دون أن تتكلم كلمة وانظر أمامك.

وكان دور رقم (ثلاثة)، (آيزاك). أعطي تكليف (معلم أبناء الست) فأشرق وجهه فرحًا، وكان جديرًا به. وبعدما اختيرت ثلاثة تكليفات، لم تصبُ نفسُ (جوناس) إلى واحدة منها قط -ضحك (جوناس) فصفاته لا تؤهله لأن يصير (ولادة)، على كل حال. حاول أن يمرر قائمة التكاليف على ذهنه، تلك التكاليف المتبقية المتوقعة. ولكن أنهك ذهنه كثرتها فأمسك عن التفكير؛ ثم حان دور (آشر)، فانتبه ولف

عنقه إلى صديقه وهو يمضي إلى المنصة ويقف على استحياء إلى جانب رئيس الكهول.

بدأت رئيس الكهول تقول: "كلنا يعرف (آشر) ويستطرفه"، تبسم (آشر) وحك إحدى رجليه بالأخرى فضحك الحضور.

استكملت تقول: "لما بدأت اللجنة تنظر في تكليف (آشر)، كان هناك بعض الاحتمالات التي سرعان ما غضضنا الطرف عنها؛ ذلك أنها لم تكن تناسبه".

قالت مفترة الثغر: "فمثلًا، لم نفكر لحظة أن نعيّنه (معلمًا لأبناء الثلاث)".

انفجر الحضور ضحكًا. حتى (آشر) ضحك. ذابت نفسه حياءً وخجلًا ولكنه كان مسرورًا من خصّها إيّاه بالحديث. كان (معلمو أبناء الثلاث) مسؤولين عن تلقين اللغة الصحيحة السليمة.

"بل إننا فكرنا في توبيخ (معلم أبناء الثلاث) الذي درّس له قديمًا. وحين اجتماعنا ونحن نتحدث في شأن (آشر) قصصنا قصصًا كثيرة ذكرناها من أيام تلقينه اللغة الصحيحة".

قالت وهي تضحك: "ولا سيما الفرق بين وجبة ووكزة، تذكُرُ يا (آشر)؟".

نكس (آشر) رأسه فضحك المتفرجون عاليًا. وضحك (جوناس) كذلك. لقد ذَكَرَ هذه الحادثة على أنه كان وقتها في الثالثة فقط من عمره.

وضع المجتمعُ عقابًا للأطفال الصغار، نظام ضربات ضبطوه ضبطًا دقيقًا، استُعملت فيه عصا تأديب دقيقة مرنة تلسع حين تنزل لسعًا أليمًا.

كان متخصصو رعاية الطفل مدربين بحذر شديد على طرائق التأديب: وكزة خاطفة على يد الطفل إن بدرَت منه هفوة؛ وثلاث وكزات أشد على الرجل العارية إن هفا أخرى.

يا لـ (آشر) المسكين الذي طالما تلعثم في كلامه وأخطأ، حتى وهو طفل صغير. وكأي طفل في الثالثة يرغب في عصيره وبسكويته قال ذات يوم "وكزة" بدل "وجبة" وهو واقف في الصف ينتظر الحلوى الصباحية.

كانت ذكرى هذه الحادثة حاضرة في ذهنه. ما زال يرى (آشر) الصغير وهو يتحرك في الصف متململًا يصيح بصوت فرح مبتهج قائلًا: "أريد وكزتي!".

ضحك سائر أبناء الثلاث ضحكًا يشوبه قلق، وقالوا يصححون: "وجبة! تقصد وجبة يا (آشر)!" ولكن ما يُغني عنه تصحيحُهم بعدما أخطأ؟ كانت دقة اللسان من أهم ما يُطلب من الأطفال الصغار. لم يُحسن (آشر) استعمال اللغة فطلب وكزة.

وإذا (عامل رعاية الطفل) عند رأسه يحمل في يده عصا التأديب، وما نزل بها على يدَي (آشر) حتى أحدثت صفيرًا، فبكى (آشر) وانكمش خوفًا وصحح نفسه وهو يهمس بصوت متهدج مضطرب: "وجبة".

ولكنه كررها صباح غد ذلك اليوم. والأسبوع الذي أعقبه. بدا كأنه لا يستطيع أن يكبح نفسه، ولكن مع كل غلطٍ غلِطَه أتته عصا التأديب تصححه ببضع جلدات موجعة تركت أثارًا على رجليه المسكينتين. وما زالوا به حتى أصبح يفأفئ ويتأتئ ثُمَّ حُبس لسانه زمنًا عن الكلام، وهو لا يزال بعدُ ابن ثلاث سنين.

قالت تقص القصة: "ظل (آشر) مدّة لا ينطق ولا يُبين! ولكنه تعلم الدرس".

التفتت إليه مبتسمة وقالت: "لمّا بدأت عقدة لسانه تنحل كان كلامه أدق. أصبحت زلات لسانه الآن قليلة نادرة، واعتذاراته سريعة عاجلة. أمَّا فكاهته فمعينٌ لا يَنضَب". تمتم المتفرجون تصديقًا على كلامها. كان حسه الفكاهي مشهورًا قد طار أصقاع المجتمع كله.

رفعت نبرة صوتها لتذيع الإعلان الرسمي قائلة: "(آشر). قد منحناك تكليف (مدير قسم الترفيه)".

خلعت عليه شارته الجديدة وهو واقف بجانبها باسمًا متهللًا. ثم استدار وغادر المنصة قاصدًا مقعده وسط احتفاء المتفرجين به. ولمّا بَلَغَ مقعده رأى رئيسَ الكهول تُخفض نظرها إليه وتقول الكلمة التي قالتها أربع مرات حتى الآن وستظل تقولها لكل ابن اثنتي عشرة. كانت وهي تقولها لكل واحد منهم كأنها تُضفي عليها معنى خاصًا. قالت: "(آشر)، شكرًا على طفولتك".

استكملتْ (التكاليف) وظل (جوناس) يرقب ويستمع مستنفر الحواس، يجلس مرتاحًا بعدما اطمأن على رفيقه (آشر). غير أنه كلما اقترب دوره تعاظم قلقه وخشيته. قد استلم الصف الذي يليه كله شاراتهم. جعلوا يجسونها وهم جالسون، وعلم (جوناس) أن كل واحد منهم كان مشغول البال يفكر في التدريب الذي ينتظره. سوف يقضي بعضهم -ذَكَرٌ مُجدٌ نبيه اختير (طبيبًا)، وأنثى اختيرت (مهندسة) وأخرى في القانون والقضاء- سنين وسنين يكدّون ويدرسون، وسوف يقضي آخرون، كـ (العمّال)، و(الولّادات)، فترة تدريب أقصر.

نُودي رقم (ثمانية عشر)، (فيونا)، التي تجلس بجانبه. علم (جوناس) أنها لا بد قلقة، ولكنها كانت أنثى هادئة. كانت تجلس طوال المراسم تغشاها سحابةٌ من الهدوء والسكينة.

حتى التصفيق، على حرارته، كانت عليه مسحةٌ من السكينة حين استلمت (فيونا) تكليفها المهم، تكليف (راعية المسنين). كان أنسب تكليف لفتاة رقيقة لطيفة مثلها، وكانت ابتسامتها حين رجعت إلى مقعدها وجلست بجانبه ابتسامة حافلة بالرضى مفعمة بالسعادة.

ولمّا انتهى التصفيق وتناولت رئيسُ الكهول الملف التالي، فألقت نظرها إلى صبيان المجموعة لتنادي الجديد التالي. تجهز (جوناس) ليقوم من مقامه ويمضي قاصدًا المنصة. كان قد صار أهدأ حين جاء دوره، وقد ذهب عنه بعض قلقه. تنهد تنهيدة عميقة يخرج بها بقية قلقه، فسوّى شعره بيده وتهيأ، فإذا هي تنادي بصوت واضح قائلة: "عشرون، (بيري)".

جمد (جوناس) في مكانه وقال في نفسه يتساءل ذاهلًا مشدوهًا: "أوَ جاوزتني؟ أم أخطأتُ أنا السمع؟". أطبق سكوت رهيب شمل المكان وامتد، علم (جوناس) أن المجتمع كله قد أدرك أن رئيس الكهول قفزت من رقم (ثمانية عشر) إلى رقم (عشرين). قام (بيري) عن يمينه حائرًا مدهوشًا ومشى إلى المنصة.

لعلها أخطأت، نعم لعلها أخطأت. ظلت هذه الخاطرة تُراوده ولكنّه علم أنها لم تخطئ. رئيس الكهول لم تخطئ قط. ولا سيما في مراسم أبناء الاثنتي عشرة.

هدّم تجاوزها إياه مباني الأمل عنده، وطفق العالم من حوله يدور ويدور كأنما زُلزلت الأرض من تحته زلزالها، ثُمَّ غشيه من الغم ما

غشيه فأصبح لا يسمع ولا يرى. لم يسمع التكليف الذي كُلّفه (بيري)، لم يصل إلى مسامعه شيء حين عاد الصبي يلبس شارته الجديدة إلا تصفيقًا مكتومًا كأنه صدى أتاه من مكان بعيد. ثم جاء دور (واحد وعشرين) و(واثنين وعشرين).

استمرت الأرقام في ترتيبها، رقم يتبع رقمًا، وظل (جوناس) في مكانه جامدًا ذاهلًا حتى بلغوا الثلاثين والأربعين وأشرفوا على الانتهاء.

ومع كل رقم يُنادى يقفز قلبه من مكانه قفزًا وتطارحه نفسه أفكارًا غريبة جامحة شاذة. "لعلها الآن تنادي اسمي، أم هل يُعقل أني نسيتُ رقمي؟ كلّا. رقمي كان ولا يزال (تسعة عشر). ألم يُحفر الرقم حفرًا على المقعد الذي أجلس عليه؟" وهاج بحرُ الأسئلةِ في رأسه وطفق يلاطمُه بأمواجِه من كل ناحية.

أيقنت نفسه الآن أنها قد جاوزته. دارَ بنظرِه حولَه فإذا الآخرونَ من مجموعته ينظرون إليه، وما يقع نظره عليهم حتى يستردوا أنظارهم ويشيحوا بوجوههم عنه خجلًا. نظر إلى قائد المجموعة فرأى القلق قد نسج خيوطه على وجهه.

قوّس كتفيه واحدودب وانكمش في كرسيّه لعلَّه يتقي نظراتهم التي تضرب في أحشائه فتذيقه ضروبًا من الذل والهوان. ليتني أختفي من الوجود ويُطوى ذكري من بعدي كأن لّم أكن شيئًا. لم تطاوعه نفسه أن يدير وجهه ليقلب نظره في الحضور بحثًا عن أبويه، فأنّى يستطيع رؤية الخزي حاططًا رحاله على وجهيهما؟

نكس رأسه وشرع يفتش في ذهنه، لا يترك بابًا إلا طرقه سائلًا: "في أي شيءٍ أذنبتُ؟" أيظل هكذا جازعًا في مصيبته فيعطبُ، أم يصبر عليها كأنْ لمْ تنزلْ به، ولكن كيف يصبر على ما لا يحتمله طَوْقُه؟

٨

ظهر الضيق على ملامحِ المتفرجين كأن شيئًا قد وقف في حلوقهم فلا يكادون يسيغونه. بلى صفّقوا حين تسليم آخر تكليف، ولكنّه كان تصفيقًا فاترًا متفرقًا بعدما كان جمرة واحدة يعلو لهيبها ويتقد شيئًا فشيئًا. غشيتهم الحيرة حتى استمكنت منهم فطفق بعضهم يهمهمُ تعجبًا.

ضم (جوناس) يديه إلى بعضهما يُصفّق، ولكنها كانت حركة آلية لا روح فيها صنعها عفوًا دون وعي منه. لقد ذهبت عنه كل مشاعره السابقة، مشاعر الأمل والإثارة والفخر وحتى السعادة التي بينه وبين أصدقائه، كأنها ما اجتمعت عليه إلا لتفترق وتتركه وحيدًا لمشاعر الرعب والخزي تنهشه نهشًا.

انتظرت رئيس الكهول حتى خمد ذلك التصفيق القلق المضطرب. ثم قالت بصوتها الرنّان اللطيف: "أعلم. أعلم أنكم مهمومون، وأنكم تحسبون أني أخطأت".

قالتها وتبسّمت. انشرحت صدور أهل المجتمع بعد كلمتها العذبة اللطيفة، واستفاق (جوناس) من غمرته وانتفض قليلًا ورفع رأسه إليها وحشد نفسه ينتظر ما تقول.

قالت: "قد أثرتُ في نفوسكم القلق، معذرة إليكم". غمر صوتها الحضور المحتشد.

قالوا جميعًا: "عذركِ مقبول".

خفضت نظرها إلى (جوناس) تقول: " معذرة إليك خاصة، فقد رميتُك بكرب شديد".

قال (جوناس) وهو يتلجلج: "عذركِ مقبول".

قالت: "فضلًا هلمَّ إلى المنصة".

تدرب أولَّ اليوم -وهو في مسكنه يلبس ملابسه- على مشية الواثق المتبختر طمعًا في أن يمشيها حين يأتي دوره. حث نفسه على النهوض وجر قدميه المثقلتين المترنحتين وظل يحث نفسه على المشي وصعود الدرج حتى وصل ووقف إلى جانبها.

مدّت ذراعها إلى كتفه المتشنج تطمئنه.

وإذا هي تقول: "(جوناس) لم يُكلَّف"، وما ألقت كلمتها على الحضور حتى بلغ قلبه حنجرته.

ثم وصلت كلامها تقول: "(جوناس) قد اختير".

طرف بعينيه وإذا هو بسيل طافح من أصوات الحاضرين يتساءلون: "وما يعني ذلك؟" قد التبس عليهم الأمر هم كذلك.

أضاءت لهم ظلمة الحيرة بصوت قاطع جَهوَريٍّ مُعلنة: "لقد اختير (جوناس) ليخلفَ (مُتَلَقّي الذكريات) الحالي".

فإذا هو بشهقة ذهولٍ تخرج من حلق كل مواطن، فنظر إلى وجوههم فرأى عيونهم شاخصة شخوص إجلال وإكبار.

ولكنّه ظل عاجزًا عن الفهم.

قالتْ للمتفرجين: "اختيار كهذا يندر أن يبلغَه أحد. ليس في مجتمعنا إلا (متلقٍ) واحد. وهو الذي عليه تدريب خليفته".

واستكملت تقول: "لقد لبث (المتلقي) الحاليَ فينا عمرًا طويلًا".

أتبع (جوناس) طرفَه طرفَها فإذا هي تنظر إلى أحد الكهول. كان أعضاء لجنة الكهول يجلس بعضهم مع بعض في مجموعة واحدة؛ وكانت رئيس الكهول تنظر إلى واحد يجلس في الوسط، والغريب أنه كان جالسًا منفصلًا عنهم. كان رجلًا ما وقعت عليه عين (جوناس) من قبلُ، كان كثَّ اللحية باهت العينين يصعّد نظره في وجه (جوناس) ويصوّبه.

قالت رئيسُ الكهول تصارحهم: "نحن أخفقنا في اختيارنا السابق. كان ذلك منذ عشر سنين حين كان (جوناس) طفلًا صغيرًا. ولن أعرج على تلك التجربة لأنها تبث فينا زَعَجًا رهيبًا".

لم يكن (جوناس) يعلم ما تشيرُ إليه، ولكنّه استشعر الانزعاج الذي خالط نفوس الحاضرين؛ فقد تقلّبوا في أماكنهم ضيقًا واضطرابًا.

أردفت تقول: "لكنّا لمْ نعجل هذه المرة. فنفوسنا لن تطيق إخفاقًا آخر".

وقالت وقد ألانت نبرة صوتها لتُسكنَ الاضطراب الذي ساد المكان: "طورًا لا نكون واثقين كل الثقة من اختياراتنا حتى بعد تلك المراقبات الدقيقة المجهدة. وطورًا يتسلل إلى نفوسنا شك: أيستطيع ذلك المكلّفُ تحصيل كل الصفات المطلوبة من تدريبه؟ فنحن نعلم أن أبناء الإحدى عشرة لا يزالون صبيانًا. فالمرح والصبر اللذان نلحظهما أثناء مراقباتنا -وهما متطلبا كل حاضن- قد يظهر لنا لاحقًا

مع النضوج أنهما ليس إلا حمقًا وكسلًا. لذلك نظل نراقب تدريباتهم، ونتدخل وقت الحاجة كي نضبط سلوكهم. أمَّا (المُتلقي) الذي تحت التدريب فلا نستطيع مراقبته ولا تقويم سلوكه. لقد خُطَّ ذلك في القوانين خطًّا. يجب أن يظل وحيدًا منفصلًا عمَّن حوله و(المُتلقي) الحالي يعدّه للوظيفة الأشرف في مجتمعنا".

وحدي؟ منفصلًا؟ قرعت هاتان الكلمتان مسامعه فزادته قلقًا على قلقه.

"لذلك يجب أن يكون خيارًا سديدًا. لا بد أن يكون خيارًا تُجمع عليه اللجنة. لا ينبغي أن يكونوا في شك منه ولو قليل. إن حلم أحد أعضاء اللجنة أثناء الاختيار حلمًا يثير الشكَّ، فإن ذلك الحلم أهلٌ لأن يصرف نظرهم للتو عن ذلك المرشح. لقد رُشّح (جوناس) منذ سنين ليكون (المُتلقي). لقد راقبناه مراقبة قريبة دقيقة. ولم تأتنا منه أحلامٌ تقدح في نفوسنا الشك. وقد اجتمعت فيه كل الصفات التي يجب توفرها في (المُتلقي)".

وشرعت، وهي واضعة يدها على كتفه، تسرد هذه الصفات.

قالت: "أولها الذكاء، نعلم جميعًا أن (جوناس) كان طالبًا نجيبًا في دراسته".

ثم قالت وابتسمت: "وثانيها الاستقامة، فـ(جوناس)، مثلنا جميعًا، لم يقترف إلا مخالفاتٍ يسيرة. وهذا كنا نتوقعه. وكنا نرجو كذلك أن يسوق نفسه سريعًا إلينا لينال عقوبته، وقد فعل ولم يخيب أملنا".

وأردفت تقولُ: "وثالثها الشجاعة، ليس بيننا اليوم إلا واحدٌ خاض غمار التدريب القاسي المطلوب من (المُتلقي). وهو أهم عضو في

اللجنة، ما في ذلك ريب، أقصد (المُتلقي) الحالي. هو الذي ظل يذكّرنا مرارًا بالشجاعة التي يجب أن تكون في المرشح".

"جوناس"، قالتها وهي تلتفت إليه ولكن بنبرة عالية تبلغ مسامع المجتمع كله، "التدريب المطلوب منك يتضمن ألمًا، ألمًا بدنيًا".

شعر بالخوف يجري في عروقه جريًا كأنها بكلمتها هذه أمرت الخوف أن يسلط عليه جنوده.

"وأنت ما ذقتَ هذا قط. بلى أعلم أنك خدشت ركبتيك في سقطاتك عن الدراجة، وأنك سحقت إصبعك في الباب السنة الماضية".

أومأ (جوناس) برأسه مصدقًا وجرَّ كلامها إلى ذهنه الحادثة وما صاحبها من شقاء.

قالت تشرح بنبرة لطيفة: "ولكنّك الآن ستلاقي ألمًا يبلغ مقدارًا لا يقدر أحد منا على تخيّله لأنه شيء لا تصل إليه أيدينا ولا تمتد إليه إدراكاتنا. حتى (المتلقي) نفسه لم يستطع وصفه، لم يقل إلا إنك ستقاسيه، وإنك تحتاج إلى شجاعة عظيمة. ونحن لا نستطيع أن نعدّك لمثل هذا. ولكننا نوقن أنك شجاع".

لم يحس في نفسه مثقالَ ذرة من الشجاعة، ولا سيما الآن.

"والرابعة، هي الحكمة. ولم يُحصّل (جوناس) هذه الصفة بعدُ. تحصيل (الحكمة) يأتي أثناء تدريبه. فمن كانت هذه صفاته لا يكون بينه وبين تحصيل الحكمة إلا بعض الوقت، وهذا ما كنا نبحث عنه".

ثم تابعت: "وأخيرًا، يجب أن يكون في (المتلقي) صفة أخرى، وهي صفة لا أستطيع إلا تسميتها دون وصفها، فأنا لا أفهمها. وأنتم

كذلك أعضاءَ المجتمع لن تفهموها. لعل (جوناس) يفهمها لأن (المتلقي) الحالي أخبرنا أن (جوناس) يملك هذه الصفة. يسميها (رؤية ما وراء الحُجُب)".

نظرت رئيس الكهول إلى (جوناس) بعينين متسائلتين. وكذلك المتفرجون. غشي الحاضرين جميعًا صمت رهيب.

تجمد في مكانه هنيّة يائسًا مستنزفًا. لم يكن يملك هذه الصفة، أيًّا كان اسمها الذي ذكرته. لم يكن يعرف ما هي. كانت هذه اللحظة التي عليه أن يكاشفهم فيها قائلًا: "لا، لستُ أملكها. لن أفلح فيما ندبتموني له"، ويرمي نفسه بين أحضان رحمتهم وأذرع عفوهم ويشرح لهم أنه اختير خطأً، وأنه ليس بالشخص المناسب.

ولكن لما التفت ينظر إلى هذا البحر من الوجوه، إذا ذلك الشيءُ يحدث مرة أخرى، ذلك الشيء الذي حدث للتفاحة.

تغيّر الحضور.

طرف بعينيه، فذهب هذا التغيير. استقام ظهره قليلًا، وشعر للحظة ببعض الثقة تسري في نفسه لأول مرة.

ظلت ترقبه، كانوا جميعًا يرقبونه.

"نعم، أظنها عندي. غير أني ما زلت لا أفهمها. ولا أعرف ما هي. ولكنّي من حين إلى حين أرى أشياء. لعلها هي هذه الماوراء".

أزالت ذراعها من على كتفه وقالت، ليس له وحده ولكن للمجتمع كله الذي كان جزءًا منه: "(جوناس) ستُدَرَّب لتصبح (مُتلقينا) القادم. شكرًا على طفولتك".

ثم استدارت وتركت المنصة، تركته هناك وحيدًا، يقف وحده مواجهًا هذا الحشد الكبير الذي أنشأ معًا يردد الهمهمة الجماعية لاسمه.

"جوناس." بدأت همسًا مكتومًا يكاد لا يُسمع. "(جوناس). (جوانس)".

ثم علا الهمس وتسارع. "**(جوناس). (جوناس). (جوناس)**".

علم (جوناس) إذ ينشدون هذا النشيد أنهم يقبلونه في المجتمع هو ودوره الجديد، ويهبونه الحياة، كما وهبوها من قبلُ لذلك الطفل الجديد (كيليب). ظلوا كذلك حتى امتلأ قلبه شُكرًا وفخرًا.

ولكنه أيضًا امتلأ خوفًا. لم يدرِ ما معنى اختياره. ولم يدرِ ما الذي سوف يكونه.

أو ما الذي سوف يكون منه.

٩

الآن شعر (جوناس)، ولأول مرة بعد اثنتي عشرة سنة قضاهن على قيد الحياة، بالانفصال والاختلاف. ذكر ما قالته رئيس الكهول: أنه سيقضي تدريبه وحيدًا مُنعزلًا.

وما بدأ تدريبه بعدُ حتى شعر -وهو يغادر المحفلَ- بالعزلة. مضى لسبيله وسطَ الحشودِ ممسكًا بالملف الذي سلمته إياه يبحث عن وحدته الأسرية وصديقه (آشر). كان الناسُ إذ يرونه يتنحَّونَ له عن الطريقِ ويتهامسون فيما بينهم.

"يا (آش)؟" نادى صاحبه بعدما لمحه واقفًا عند صفوف الدراجات. "هلّا رجعنا معًا؟".

"ولمَ لا؟ تعال". قالها (آشر) وتبسم ابتسامته الودودة المألوفة. ولكن لاحظ (جوناس) كلامًا يتحيّر في شدقي صديقه حتى قال: "هنيئًا لك".

"ولك أيضًا. ضحكت حين ذكرت قصة "الوجبة" و"الوكزة". لقد صفق لك الحضور أكثر ما صفق لغيرك".

كان أبناء الاثنتي عشرة مجتمعين عن اليمين وعن الشمال، يُودِعون ملفاتهم في سلال النقل المثبتة على ظهور دراجاتهم. سيمكثون ليلًا كلٌ في مسكنه يذاكرون الإرشادات التي ينبغي على كل واحد منهم اتّباعها

قبل أن يشرعوا في تدريباتهم. ظل الصبيان سنينًا يحفظون دروسهم المدرسية المطلوبة وهم يتثاءبون في سأم وملالة. ولكنَّ الليلة يكبّون كلهم في لهفة يستظهرون القوانين التي وُضعت لتكاليفِ الراشدين.

وإذا هما بصوت يصيح قائلًا: "هنيئًا لك يا (آشر)!" ثم تردد في الكلام التردد نفسه حتى قال: "ولك أيضًا يا (جوناس)!".

هنأا زملاء مجموعتهما، ثم لمح (جوناس) أبويه يرقبانه حيث ركنا دراجتيهما. وكانت (ليلي) في مقعدها.

حيّاهم بيده فحيّاه أبواه باسمين، ولكنّه لاحظ ليلي تنظر إليه نظرة جادة، واضعة إبهامها في فمها.

ركب دراجته وقصد إلى مسكنه وهو ينازع (آشر) بعض الطُرَف ويبادله بعض التعليقات.

صاح يقول: "أراك غدًا يا (مدير الترفيه)!" قالها وهو ينزل عن دراجته عند باب البيت و(آشر) مستمر في طريقه.

صاح (آشر) يقول: "غدًا إذن!". مرة أخرى، أحس (جوناس) للحظة أن الأمور لم تعد كما كانت عليه في صداقتهما التي امتدت طويلًا. ولكن لعل (جوناس) كان واهمًا، فكيف تتبدل علاقته بـ(آشر)؟

كانت الوجبة المسائية أهدأ من المعتاد. جعلت (ليلي) تثرثر، تذكر خططَها لساعات التطوّع. استقر بها العزم أن تقضي أولى ساعاتِها في مركزِ الحضانة، فقد أصبحت خبيرةً في إطعام (جابرييل).

أضافت حين نظر لها أبوها يحذّرها: "أعلم، لن أذكر اسمه. أعلم أني لا ينبغي لي معرفة اسمه".

"لا أستطيع الانتظار إلى الغد"، قالتها فرحة مسرورة.

تنهد (جوناس) تنهيدة المنزعج وتمتم قائلًا: "أما أنا فأستطيع".

قالت أمه: "لقد كُرِّمتَ تكريمًا عظيمًا. أنا وأبوك فخوران بك جدًّا".

قال أبوه: "حاز أهم وظيفة في المجتمع".

"أَلَمْ تقولا من قبل إن وظيفة اختيار التكاليف هي الأهم!".

"وظيفة (المُتلقي) أمرها مختلف. هي ليست وظيفة في الحقيقة. لم يخطر على بالي قط أنْ..." وأمسكت عن الكلام هنيّة ثم قالت: "ليس هناك إلا (متلق) واحد فقط!".

"ولكنَّ رئيس الكهول ذكرت أنهم اختاروا واحدًا من قبلُ ثم أخفق. عمَّ كانت تتحدث؟".

ترددا هنيهة ولم يعرفا بما يجيبان، ثم شرع أبوه يقص أحداث الاختيار السابق قائلا: "كان يومًا كيومنا هذا يا (جوناس)، نفس القلق والاضطراب اللذين خالطا الناس بعدما تجاوز رئيس الكهول أثناء تسليم التكاليف صبيًا من أبناء الإحدى عشرة، ثم جاء الإعلان وأفردوه بالذكر...".

قاطعه (جوناس) يتساءل: "وما كان اسمه؟".

"اسمها وليس اسمه. كانت أنثى. ولكن ليس مسموحًا لنا قط أن نذكر الاسم، ولا أن نطلقه مرة أخرى على طفل جديد".

وقع الخوف في قلب (جوناس)؛ فقد كان ذلك يعد من أخزى الخزي في المجتمع.

سألهما مضطربًا: "وماذا حدث لها؟".

وجم أبواه وخلا وجههما من كل تعبير، ثم قال أبوه منزعجًا: "لا ندري. لم نرها قط مجددًا".

حفهم الصمت بملاءته وطفقوا يتبادلون النظرات، حتى قالت أمه وهي تقوم عن الطاولة: "لقد كُرِّمتَ تكريمًا عظيمًا يا (جوناس). تكريمًا عظيمًا".

وبينما (جوناس) يتهيأ للنوم فتح الملف أخيرًا. لقد لاحظ مع بعض أبناء الاثنتي عشرة الآخرين ملفات تكتظ بالورق. تخيّل (بينجامين)، ذلك الذكر الذي في مجموعته ذا الشخصية العلمية، وهو يبدأ قراءة ورق القوانينِ والإرشادات مستمتعًا منبسطَ الأسارير. وتراءت له (فيونا) تبتسم ابتسامتها اللطيفة وهي مُكبّة على قوائم الواجبات والطرائق التي سيُطلب منها تعلمها في قابل الأيام.

ولكنَّ ملفه يكاد يكون فارغًا. لم يكن فيه إلا ورقة واحدة. قرأها مرتين.

إلى (جوناس)

(مُتَلَقّي الذكريات)

١. إذا انقضت الساعات المدرسية فاذهب إلى المبنى الملحق خلف دار المسنين، وعرّف نفسَك إلى الموظفة.

٢. إذا انقضت ساعات التدريب فاذهب إلى مسكنك.

٣. من الآن أنت معفيٌ من القوانين التي تمنع البذاءة. لك أن تسأل ما شئت لمن أردت وعلى المسؤول إجابتك.

٤. لا تتحدث في شأن تدريبك مع أي عضو من أعضاء المجتمع، ولا حتى أبويك ولا الكهول.

٥. من الآن أنت ممنوع من قصّ أحلامك.

٦. لا تأخذ أي علاج إلا لمرض أو إصابة لا يمتّان إلى تدريبك بصلة.

٧. لا يُسمح لك طلبُ التسريح.

لمّا فرغ من قراءتها تجمد (جوناس) في مكانه تجمد المذهول. ماذا عن صداقاته؟ وساعات الفراغ التي قضاها في لعب الكرة وركوب الدراجة على طريق النهر؟ كانت تلك الساعات عنده ساعات فرح وضرورة. هل تُسلب منه الآن كلّها دفعة واحدة؟ كانت هذه الإرشادات اللوجيستية اليسيرة -التي تحدد أماكن الذهاب ومواعيده- متوقعة؛ فكل أبناء الاثنتي عشرة يجب إخبارهم أين يذهبون وكيف ومتى ليتيسر لهم الحضور إلى تدريبهم. ولكنّه ابتأس قليلًا من الجدول الذي لم يترك له، كما يظهر، أي وقت للترفيه.

ثُمَّ راعه* إعفاؤه من قانون البذاءة. وحين قرأ هذا الإرشاد مرة أخرى أدرك أنه لم يُكرهه على أن يكون بذيئًا؛ ولكن أباح له الخيار. كان موقنًا أنه لن يستغل هذه الإباحة. فقد ألفت نفسه إحسان الأدب مع الآخرين من أهل المجتمع، فكيف له بعدها أن يستوقف مواطنًا آخر ويحمله على أن يجيب على سؤال شخصيّ؟ كان يخشى أن يجر أحدا إلى شيء يضيق منه صدره ويبث في نفسه الحرج.

أما منعه من قص الأحلام فلم يره أمرًا ذا بال؛ فهو لم يحلم إلا لمامًا، وقد سره إعذاره من هذه الطقس. غير أنه سرح هنيهة يتساءل، كيف أصنع بهذا القانون غدًا في الوجبة الصباحية؟ هَبْني حلمتُ، هل عليَّ حينئذ أن أخبر وحدتي الأسرية أنّي لم أحلم، كما كانت عادتي؟ لتكونن كذبة إذن. ولكن آخر قانون يقول... قطع تدفق أفكاره؛ فهو لم يكن مُهيأ بعدُ ليفكر في شأن آخر في الورقة.

أقلقه منع العلاج. فالعلاج كان دومًا متوفرًا للمواطنين، حتى الصبيان عن طريق آبائهم. لما سحق إصبعه في الباب هرع إلى المذياع

* راعه: فاجأه وأخافه.

ليُخطرَ أمَّه؛ فأسرعت تطلب مُسكن آلام فأُرسل من ساعته إلى المسكن. فلما تناوله ذهب عنه ذلك الوجع الشديد تاركًا وراءه وجعًا خفيفًا يروح ويجيء ليذكره بتلك الحادثة الأليمة.

أدرك بعد قراءة القانون السادس أن الإصبع المسحوق تصدق عليه عبارة "لا يمت إلى التدريب بصلة" لذلك لو سُحق مرة أخرى -وكان موقنًا أن ذلك لن يحدث؛ لأنه تجنب الأبواب الثقيلة منذ تلك الحادثة! لو سحق مرة أخرى فله حينئذ أن يأخذ علاجًا. والحبة التي تناولها كل يوم كانت كذلك لا تمت إلى التدريب. لذلك سيستمر في تناولها.

ولكن خامرته ذكرى جرت معها مشاعر القلق، وهي ما ذكرته رئيسُ الكهول في شأن الألم الذي سيصاحب تدريبه حين قالت: "إنه ألم لا يُوصف".

تجرّعها (جوناس) وهو يحاول دون جدوى أن يتخيّل مقدار الألم دون أخذ أي علاج. ولكن قصر إدراكه عن تخيله.

وما كان له رَدٌ على القانون السابع؛ فهو لم يخطر على باله تحت أي ظروف أن تحدثه نفسُه بالتسريح.

استأزر بإزار العزم وقرأ القانون الأخير مرة أخرى. دُرِّب (جوناس) منذ مهد طفولته، منذ بدأ تعلم اللغة، على ألا يكذب مطلقًا. كان ذلك أساس إجادة الدقة اللغوية. ذات يوم وهو في الرابعة من عمره قال قبل وجبة منتصف النهار في المدرسة: "أتضورُ جوعًا".

فأُخذ وحده جانبًا ليُعطى درسًا في الدقة اللغوية. قيل له إنه لم يكن يتضور جوعًا. بل كان جائعًا. ليس في المجتمع أحدٌ يتضور جوعًا، وما كان أحدٌ قط يتضور جوعًا ولن يكون. فقد عُدَّ قول المرء: "أتضور

جوعًا" كذبة. وهي كذبة لا شك غير مقصودة. ولكن كان سبب الدقة اللغوية هو التأكد من أن الكذبات غير المقصودة لن يلفظها أحدٌ قط. سألوه: "أوعيتَ هذا؟" فأجاب أنْ نعمْ "قد وعيتُه".

لم يَجد بين طيّات ذكرياته مرةً أُغري فيها قط بالكذب. فـ (آشر) لم يكذب، لا هو ولا (ليلي) ولا أبواه ولا أحد قط. إلا...

وإذا خاطرة تخطر له لأول مرة. كانت خاطرة مخيفة. ماذا لو وجد سائر الراشدين بعد أن يبلغوا الثانية عشرة ضمن إرشاداتهم نفس العبارة المرعبة التي تقشعر منها الأبدان؟

هَبْهُم جميعًا قيل لهم: رخص لكم في الكذب؟

ذهب عقلُه كلَّ مذهب. فما دام رُخِّص له في الأسئلة البذيئة بل وانتظار الإجابات، فممكن تصورًا -على أنه أمر صعب عسير لا يتأتى تصوّره- أن يسأل أي امرئ، ولا سيما الراشدين ومن ثم أباه ربّما: "هل تكذب؟".

ولكن لم تكن هناك من طريقة يستطيع بها أن يعرف هل صدقه الجوابَ أم لا.

١٠

"سأدخل أنا يا (جوناس)" قالتها (فيونا) له حين بلغا مدخل دار المسنين بعدما ركنا دراجتيهما في المكان المخصص لهما.

"لا أدري لمَ أنا قلقة هكذا، لقد جئت إلى هنا مرات ومرات من قبلُ". قالتها تصارحه وقَلَبَت ملّفها بين يديها.

ذكّرها (جوناس) قائلًا: "تبدّل كلُّ شيءٍ الآن".

ضحكت وقالت: "نعم، حتى ألواح الأسماء المثبتة على دراجاتنا".

في الليل قصد طاقمُ الصيانة دراجات أبناء الاثنتي عشرة ونزعوا الألواح واستبدلوا بها ألواحًا تشير إلى أن راكبها مواطنٌ تحت التدريب.

"لا أريد أن أتأخر عن موعدي". لفظتها سريعًا وأنشأت تخطو قائلة: "إن انتهينا معًا سأرافقك إلى البيت".

فأومأ (جوناس) إليها وحيّاها بيده، والتف حول الدار قاصدًا البناء المُلحق، وهو جناح صغير بُني خلف الدار. لم يُرِد هو كذلك أن يصل متأخرًا في أول أيام تدريبه.

كان البناء الملحق بناءً تقليديًا جدًا، له بابٌ ليس فيه شيء يميّزه. لمّا بلغه مدَّ يده إلى المقبض الثقيل، ولكن لمح بطرف عينه جرسًا مثبتًا على الحائط فترك المقبض ودقَّه.

جاءه صوت من المذياع الذي فوق الجرس يقول: "من بالباب؟".

"هذا، هذا، (جوناس). أنا الـ... أقصد...".

"تفضّل". وصدرت طقطقة فهم منها أن الباب قد فُتح.

كانت الردهة صغيرة جدًا لم تحوِ إلا مكتبًا جلست عليه موظفة مكبة على بعض الأوراق. رفعت نظرها إليه حين دخل ثم قامت من مقامها. كان القيام شيئًا يسيرًا غير ذي بال؛ ولكن عَجِبَ (جوناس) من صنيعها؛ فلم يسبق أن نهض له أحد احترامًا من قبلُ.

قالت بنبرة إجلال وإكبار: "مرحبا بك يا (متلقي الذكريات)".

قال لها منزعجًا: "دعي عنك ذلك، قولي لي يا (جوناس)".

فتبسّمت وضغطت زرًّا، فسمع طقطقة فتحت بابًا عن شمالها. قالت: "لك أن تدخل الآن".

ثم رأت الضيق في وجهه وعلمت مأتاه؛ فلم تكن هناك قط أبواب مغلقة في المجتمع. في حدود معرفته، على الأقل.

قالت تبيّن له: "ليست الأقفال إلا لنضمن خلوة (المُتلقي) فهو يريدها ليستغرق في فكره. فمن الصعب عليه لو ضلَّ المواطنون سبيلهم بحثًا عن قسم صيانة الدراجات أو شيء من هذا القبيل فانتهى بهم حالهم إلى هنا".

ضحك (جوناس) وسكن عنه بعض قلقه. بدت له المرأة ودودة جدًا، وقد صدقت في قولها -بل ما قالته كان مزحة يتناقلها مواطنو المجتمع- فقسمُ صيانة الدراجات، وهو مكتب صغير ليس له كبير أهمية، كان مكانه يتبدل مرة بعد مرة حتى صار لا يُعرف مكانُه مطلقًا.

"لا تخشَ شيئا". قالتها تطمئنه. "ولكن"، أردفت وهي تنظر إلى ساعة الحائط "لا يطيق طول الانتظار".

مضى (جوناس) إلى الباب مسرعًا فإذا هو بمكان معيشة ذي أثاث وثير. لم يكن يشبه مسكن وحدته الأسرية. كان الأثاث حول المجتمع نمطيًا، عمليًا، متينًا، وكان دور كل قطعة محددًا معلومًا: فسرير للنوم، وطاولة للطعام، ومكتب للمذاكرة.

كانت كل تلك الأشياء موجودة في هذه الغرفة الفسيحة، ولكن كان فيها اختلاف يسير عما كان في مسكنه. فالقماش الذي كسا الكراسي والأرائك المُبَطّنةَ كان أغلظَ وأترفَ؛ وأمَّا أرجل الطاولة فما كانت قائمة كتلك التي في بيته، ولكن كانت نحيفة مقوّسة، ذات نقوش دقيقة في أسفلها. وأمَّا السرير، الذي كان في كوة في مؤخر الغرفة، فكان مفروشًا بقماش رائق أنيق تغشى سطحه زخارف متداخلة.

لكن كان أبرز اختلاف جذب انتباهه هو الكتب. ففي مسكنه هناك المجلدات المرجعية الضرورية التي كانت لدى كل أسرة: فقاموس، ومجلد كبير حوى بين دفتيه تفاصيلَ كل مكتب ومصنع وبناء ولجنة. وكان معهما كتاب القوانين.

كانت تلك الكتب التي في مسكنه هي كل الكتب التي وقع نظره عليها. ما كان يدري أن هناك كتبًا أخرى.

لكن كانت حوائط هذه الغرفة تغصُّ من الأرض إلى عنان السقف بخزائن الكتب، لا تكاد تجد بين طياتها فسحة تضع فيها كتابًا جديدًا. لا بد أنها اشتملت على مئات -بل ربما آلاف- الكتب التي نُقشت عنوانيها بحروف لامعة برّاقة.

حدق (جوناس) فيها سارحًا يفكر، تُرى ماذا تحوي هذه الآلاف من الصفحات؟ هل ثمَّ قوانين أخرى غير تلك التي تحكم المجتمع؟ أم هل هناك تفاصيل أخرى تخص المكاتب والمصانع واللجان؟

لم ينظر حوله إلا لحظة لأنه علم أن الرجل الجالس على كرسيّه بجانب الطاولة كان يرقبه. أقبل عليه مسرعًا ووقف بين يديه وانحنى قليلًا يحييه وقال: "أنا (جوناس)".

"أعلم. مرحبًا يا (متلقي الذكريات)".

عرفه (جوناس). كان ذلك الكهل الذي جلس منفصلًا عن سائر اللجنة في المراسم، غير أنه كان يلبس نفس الملابس الخاصة التي لا يلبسها إلا الكهول.

نظر (جوناس) مستحييًا في عينيه الباهتتين التي طابقت عينيه كأنه ينظر إلى نفسه في المرآة.

"سيّدي، معذرة إليك على سوء فهمي...".

قالها وسكت ينتظر، ولكنَّ الرجل لم يجبه بالعبارة الاعتذارية المعتادة.

ثم استكمل (جوناس) كلامه يقول: "ولكني ظننت... أقصد أظن"، صحح نفسه، مذكرًا إياها أنه إن كانت الدقة اللغوية مهمة قط، فإن هذا هو وقتها، ههنا بين يدي هذا الرجل، "أنك أنت (متلقي الذكريات). أنا لستُ، أقصد، أنا لم أُكلَّف، أقصد، لم يختاروني إلا أمس. أنا لست بشيء بعدُ".

نظر إليه الرجل صامتًا متأملًا. كانت نظرة جمعت بين الاهتمام والفضول والقلق، وربما بعض الشفقة كذلك.

ثم تكلم أخيرًا قائلًا: "منذ اليوم، بل منذ الساعة، على الأقل بالنسبة لي، أنت (المتلقي). لقد كنتُ (المتلقي) زمنًا طويلًا. بل زمنًا طويلًا جدًّا جدًّا. ألا تستطيع أن ترى ذلك؟".

أومأ (جوناس) إليه أنْ نعم. كان وجهه الرجل مجعدًا، وكانت عيناه مُجهدتين تحفهما هالات سود، على أنهما كانتا ثاقبتين ذواتي بريق غير معهود.

أجابه (جوناس) بإكبارٍ: "بلى، يبدو لي أنك طعنت في السن". كان المسنون في المجتمع أكثر الناس إكبارًا وإجلالًا.

تبسّم الرجل ومد بنانه إلى وجهه يجس جلده المتهدل وقال مازحًا: "ولكن لست كما يظهر عليَّ. هذه الوظيفة أهرمتني قبل أواني. أعلم أن مظهري يوحي بأنهم سيسرحونني قريبًا. ولكن لا يزال لدي وقت طويل حتى حين. غير أني سررتُ حين وقع اختيارُهم عليك. لقد استغرقوا وقتًا طويلًا. مرَّ على إخفاق آخر مختار نحو عشر سنين، ثم إنَّي بدأ يدب فيَّ الفتور وينخر فيَّ الضعف. أريد ما بقي لي من قوة أستعين به على تدريبك، فلدينا أنا وأنت شغل طويل شاق".

"اجلس من فضلك". قالها وأشار إلى الكرسي المجاور، فثنا (جوناس) ركبتيه يجلس على هذا الكرسي المبطن الوثير.

أغمض الرجل عينيه واستكمل يقول: "لمّا بلغت الثانية عشرة اختاروني، كما اخترت أنت. كنت خائفًا، كما أنت الآن". فتح عينيه هنيّة وحدّق في (جوناس) الذي أومأ برأسه.

أغلق عينيه مجددا وقال: "جئت ههنا، إلى هذه الغرفة لأبدأ تدريبي. كان ذلك منذ زمن بعيد. كان (المتلقي) السابق في عينيَّ إذ قَدِمْتُ مُسنًا طاعنًا كما أبدو لك الآن. وكان مُتعَبًا واهنًا كما أنا اليوم".

وإذا هو يميل بصدره إلى الأمام وهو جالس ويفتح عينيه ويقول: "اسأل إذا أردت. أنا لم أعتد وصف هذا الأمر، فالكلام فيه محظور".

قال (جوناس): "أعلم يا سيدي. لقد اطلعت على الإرشادات".

"لذلك قد أغفل ما ينبغي عليَّ تجليتُه". قالها وضحك. "وظيفتي عظيمة الشأن رفيعة الشرف ولكنَّ ذلك لا يعني أني كامل، ثم إني أخفقت لما حاولت قبلُ تدريبَ شخصٍ يخلفني. فاسأل رجاءً ما بدا لك".

دارت في ذهن (جوناس) أسئلة. آلاف الأسئلة، بل الملايين. عصفت بذهنه أسئلة بعدد الكتب المصفوفة على الحائط. ولكنّه لم يسأل بعدُ ولا سؤال.

تنهد الرجل تنهيدة كأنه يستجمع شوارد فكره ويرتبها. ثم تحدث مرة أخرى قائلًا: "أشرح لك الأمر شرحًا يسيرًا، على علمي أنه ليس بيسير، إنَّ وظيفتي هي أن أنقل إليك كل الذكريات التي لديَّ. ذكريات الماضي".

"اعلمْ يا سيدي أني راغب في الاستماع إلى قصة حياتك، وذكرياتك".

ثم أردف سريعًا: "ومعذرة على المقاطعة".

أشار الرجل بيديه مستنكرًا: "لا وقت للاعتذارات في هذه الغرفة. الوقت يطير منا".

قال (جوناس) يستكمل كلامه يعلمُ أنه يقاطعه مجددًا: "وإني راغب في ذلك، لا أقول أني لست راغبًا. ولكنّي لا أفهم لمَ هي وظيفة

مهمة إلى هذه الدرجة؟ أستطيع أن أشتغل في إحدى وظائف الراشدين ثمَّ آتيك في وقت ترفيهي وأجلس إليك أستمع إلى قصص طفولتك. سأستمتع بذلك... بل، قد فعلت ذلك من قبلُ في دار المسنين. المسنون يُعجبهم الحديث عن طفولتهم، ويلذ لي دومًا الاستماع إليهم".

هز الرجل رأسه: "لا، لا. لم أكن واضحًا. هذا ليس ماضيَّ أنا، ليست طفولتي التي عليَّ أن أنقلها إليك".

رجع إلى الخلف مُسندًا رأسه إلى ظهر الكرسي الوثير: "هذه ذكريات العالم أجمع"، قالها مصحوبة بتنهيدة. "ذكرياتٌ قبلك وقبلي وقبل (المتلقي) السابق ومن قبله من أجيال".

عقد (جوناس) حاجبيه يسأل نفسه يحاول أن يفهم مراده: "العالم أجمع؟ لا أفهم. أتعني ذكريات غيرنا؟ غير المجتمع؟ أوَتقصد (أرض المجهول) أيضًا؟". ثم قال له: "عذرًا يا سيدي، لستُ أفهم ما ترمي إليه. لعلي لم أبلغ من الفطنة مبلغًا. لم أفهم ما أردت إذ قلتَ: ‹العالم أجمع› أو من قبله من أجيال. حسبتُ أنه لا يوجد أحدٌ غيرنا. حسبتُ أنه لا يوجد زمنٌ إلا الآن".

"بل هناك أكثر من ذلك. هناك ما يجاوزنا -ما هو قابع في (أرض المجهول) - وما يضرب بجذوره في أعماق الماضي. لقد تلقيت كل تلك الذكريات لمّا وقع عليَّ الاختيار. وأعيد إحياءها مرة بعد مرة هَهنا، في هذه الغرفة، وحدي. هكذا تأتي الحكمة. وهكذا نرسم مستقبَلنا".

أطرق هنيّة يرتاح مُتنفسًا تنفسًا عميقة ثم قال: "أنا مُثقل بهذه الذكريات".

نزل على (جوناس) همٌّ عظيم وهو يسمع ما يقول الرجل.

"مثل ذلك كمثل..." أمسك الرجل عن الحديث يفتش في ذهنه عن صورة مناسبة ثم قال: "كمثل نزولك منحدرَ تلٍ على مزلجة مخترقًا بها أكوامًا مكومة من الثلج. يُطربُك الأمر لأول وهلة، فالسرعة شديدة والهواء لافح صاف؛ ولكن سرعان ما يتراكم عليك الثلج فتتباطأ، وتضطر إلى أن تدفع دفعًا شديدًا لئلا تتوقف، و...".

ثم يهز رأسه ويحدق في (جوناس) قائلًا: "لم يعنِ ما قلتُ لك شيئًا، أليس كذلك؟".

ركبت الحيرة (جوناس) وملكت عليه لبّه فقال: "لم أفهم شيئًا يا سيدي"،

"وأنى لك أن تفهم... أنت لا تعرف ما هو الثلج، أليس كذلك؟".

هز (جوناس) رأسه نافيًا.

"ولا المزلجة ولا الزلّاجتان؟".

"ولا هاتان يا سيدي".

"ومنحدر التل؟ ألا يعني لك شيئًا؟".

"لا يعني لي شيئًا يا سيدي".

"إذن من هنا أبدأ. كنت مشغول البال لا أدري من أين أبدأ. امضِ إلى السرير واضطجع على بطنك. ولكن اخلع سترتك أولا".

ففعل (جوناس) وفي نفسه شيء من التوجس. استشعر تحت صدره العاري الثنيات الناعمة الطرية للقماش الفخم الرائق المفروش على السرير. راقب الرجل ينهض من مكانه ويقصد الحائط حيث كان المذياع. كان هذا المذياع كغيره من المذاييع الموجودة في كل مسكن.

ولكن كان فيه شيء مختلف. كان فيه مفتاح كهربائي ذو طرفين نقر الرجل طرفه المكتوب عليه **مغلق**.

لمّا رآه (جوناس) كاد يشهق عاليًا. ما أروع أن يملك المرءُ سلطة إغلاق المذياع.

ثم عمد الرجل بسرعة عجيبة إلى الزاوية حيث كان السرير وجلس على كرسي بجانب (جوناس) الذي كان جامدًا في مكانه يترقب ما يأتي.

"أغمض عينيك. استرخِ. لن يكون هذا مؤلمًا".

ذكر (جوناس) أنه سُمح له أن يسأل، بل حُثَّ على ذلك حثًّا. فسأله: "ماذا ستفعل يا سيّدي؟" سأله وهو يأمل ألا يكون صوته قد كشف قلقه.

"سأنقل إليك ذكرى الثلج"، أجابه الرجل المسن ووضع يديه على ظهره العاري.

١١

لم يحس (جوناس) شيئًا لأول وهلة، إلا لمسة الرجل اللطيفة على ظهره.

حاول أن يسترخي ويضبط أنفاسه. كان السكون مخيّمًا على الغرفة، وتسرب الخوف إليه وهو يقول في نفسه: ماذا لو جررت على نفسي الفضيحة الآن في أول أيام تدريبي فاستسلمت للنوم؟ فللنوم سلطان لا يُغالب، يأتي المرء فيغشاه متى ما شاء.

ثُمَّ بدأ يَرْجُفُ. وإذا هو يحس لمسة اليدين قد أضحت باردة، وأحسَّ وهو يتنفس أن الهواء الذي حوله بدأ يتبدّل، فمد لسانه يلعق شفتيه فلمس به الهواء الذي تجمد فجأة.

كان إحساسًا مُباغتًا، إلّا أنَّ (جوناس) لم يطرقه خوف قط، بل كان يمتلئ همّة ونشاطًا، فأخذ نفسًا آخر يتنشقُّ الهواء البارد، فإذا هو به يدور حول جسمه كله ويعبث بيديه الموضوعتين على جانبيه ووراء ظهره. ثم كأنَّ لمسة الرجل اختفت عن ظهره.

أحس الآن إحساسًا جديدًا مختلفًا كل الاختلاف، تُرى أهذا إحساس وخز الدبابيس؟ لا ليس هو، لأن الذي يحسُّه الآن ناعم لا يُؤلم. تناثرت على جسمه ووجهه أشياء صغيرة دقيقة، باردة، ناعمة كأنها الريش. أخرج لسانه مرة أخرى فالتقط به إحدى ذرات الثلج، وما

هي إلا لمحة الطرف حتى اختفت من وعيهِ؛ ولكنّه جعل يلتقط أخرى وأخرى حتى ارتسم على وجهه بسمة سرور.

كان في جزء من وعيه لا يزال مضطجعًا هناك، على السرير، في غرفة (البناء الملحق). ولكنّه كان في جزء آخر منفصل عن كيانه جالسًا لا يحس تحته ذلك المفرش المزخرف الناعم الذي غشي السرير، بل يحس تحته لوحًا صُلبًا منبسطًا. كانت يداه (على الرغم من أنهما كانتا ساكنتين على جانبيه) ممسكتين بحبل خشن رطب.

ثم إنه استطاع أن **يُبصر** وهو مغمض العينين. رأى سيلًا لامعًا من البلورات يدور في الهواء الذي حوله، ثم رأى هذه البلورات تجتمع على ظاهر يديه كما يتجمع فراء الأماكن الباردة. كان نَفَسُه إذ يُخرجه من فمه ظاهرًا له يراه بعينيه.

استطاع أن يرسل نظره ويقطع به مسافة بعيدة إلى أسفل خلال هذا المثار من البلورات الذي عرف الآن أنه هو ذاك **الثلج** الذي ذكره الرجل المُسِنُّ. كان (جوناس) على قمة مكان مشرفٍ. وكانت الأرض تغشاها دثور من الثلج الذي يشبه الفرو. كان منظرًا يشد النظر كأنه المغناطيس الجذّاب الذي يستهوي قلب الناظر إليه وعقله وجميع حواسه.

لم يباشر (جوناس) الأرض في جلسته بل حال بينه وبينها جسم صلب منبسط.

مزلجة، ألقيت هذه الكلمة فجأة في رُوعه. كان هذا الشيء الذي يجلس عليه يُدعى مزلجة. وكانت المزلجة مرفوعة على قمة ربوة عالية ممدودة مشرفة. وعلى أنه سمّاها "ربوة"، أخبره وعيه الجديد أن اسمها **تل** وليس ربوة.

أنشأت المزلجة -و(جوناس) راكب عليها- تتحرك مخترقة به هذه الثلوج المتدفقة من السماء، فعرف أنه الآن ينحدر على التل. لم يكن هناك صوتٌ يشرح له ذلك، ولكن كفى بالتجربة نفسها شارحًا ومبيّنًا.

طفق وجهه يخترق الهواء البارد ما إن بدأ الانحدار على المادة التي تُسمّى ثلجًا راكبًا العربة التي تُدعى مزلجة، وعرف الآن دون ريب أن القطعتين النحيلتين الطويلتين اللتين شقت بهما المزلجةُ الثلجَ هما **الزلّاجتان**.

بعدما عرف كل هذه المسميّات -وهو مسرع إلى أسفل- فرغ يستمتع بهذا المرح الغامر الذي يحبس الأنفاس، أخذت لبّه السرعةُ، وأنعشه الهواء البارد الصافي، وارتاحت نفسه للصمت المحيط، واشتهت نفسه إحساس التوازن، والإثارة، والسلام.

تباطأ اندفاع المزلجة كلما قل مَيل الربوة -أو التل- وزاد الاستواء ناحية السفح. وبينما هو كذلك اجتمع حول المزلجة ركام من الثلج، فجعل (جوناس) يدفع بجسمه دفعًا لا يريد انتهاء هذه الركوبة الشائقة التي تأسر النفس وتستثير سرورها وغبطتها.

تكاثر هذا الركام وتعاظمت قوته وظل يصارع الزلاجتين النحيلتين حتى استمكن منهما واستعسر عليهما دفعه، فتوقف (جوناس). هنالك مكث هنيهة يلتقط أنفاسه ممسكًا بالحبل بين يديه الباردتين. فتح عينيه في حذر، ليس عينيه اللتين أبصر بهما الثلج والتل والمزلجة، فهاتان ظلتا مفتوحتين أثناء تلك الرحلة العجيبة. فتح عينيه العاديّتين فإذا هو لا يزال مضطجعًا على السرير لم يتحرّك من مكانه قيد أنملة.

كان الرجل المسن جالسًا بجانب السرير يرقبه. سأله قائلًا: "كيف تجدك؟".

استوى (جوناس) جالسًا وحاول أن يصدقه الجواب. قال بعد هنية: "مدهوشًا".

مَسَحَ المسنُّ جبينه بُكميّه وزفر زفرة ثم قال: "كم كان ذلك مُجهدًا. ولكنْ تعلم، حتى نقل ذكرى صغيرة إليك خفف عني شيئاً قليلًا".

"أتقصد... قد سمحت لي أن أسأل أليس كذلك؟".

فأشار الرجل برأسه يحثه على السؤال.

"أتقصد أنك لم تعد تملك هذه الذكرى؟".

"هذا صحيح. حمل خفيف قد انزاح عن هذا الجسد المُسن".

"ولكنها كانت ذكرى ماتعة شائقة! وقد ذهبت عنك الآن! قد أخذتها منك!".

ولكن ضحك الرجل وقال: "لم أمنحك إلا ركوبة واحدة، على مزلجة واحدة، على ثلج واحد، على تل واحد. أملك بحارًا منها في ذاكرتي. بيدي أن أمنحك إياها واحدة تلو الأخرى، آلاف المرات، ويظل هناك مزيد".

سأله (جوناس) قائلًا: "أتعني أنني -أقصد أننا- نستطيع فعلها مرة أخرى؟ سأستمتع بذلك بالتأكيد. أظن أنني أستطيع توجيه المزلجة بالحبل. لم أجرب ذلك هذه المرة لأن الأمر كان جديدًا عليَّ لا سابق عهد لي به".

هز الرجل رأسه نافيًا وهو يضحك وقال: "لعلنا نفعلها في يوم آخر ترويحًا عن النفس. ولكن ليس هناك وقت لنلعب. لم أرد إلا أن أشرع في شرح الأمر لك".

استحالت نبرته إلى نبرة رسمية قائلًا: "والآن اضطجع. أريد أن...".

ففعل (جوناس). كان يتوق إلى أي تجربة تأتي بعدها. ولكن انثالت عليه من حيث لا يحتسب الأسئلةُ فلم يملك لسانه وخرج عن صمته يقول: "لمَ ليس لدينا ثلوج ولا زلاجات ولا تلال؟ ومتى كنا نملكها في الماضي؟ أكان لدى أبويّ زلاجات وهما صغيران؟ هل كان لديك أنت؟".

هز الرجل كتفيه وضحك ضحكة قصيرة وقال: "لا، تلك ذكرى بعيدة نائية. لذلك كان استحضارها شاقًا مُجهدًا، فقد اضطررت أن أسحبها من أجيال عتيقة كما يُسحبَ الدلو من البئر العميقة. لقد مُنحتها لمّا أصبحت (متلقيًا) جديدًا، واضطر كذلك (المتلقي) السابق أن يأتي بها من زمن سحيق".

"ولكن ما أصاب تلك الأشياء؟ أقصد الثلج وما معه؟".

"(الضبط المناخي). فقد صعّبت الثلوج نمو الثمار، وحدَّت مواسم الزراعة. وجعل المناخ غير المتوقع حركة النقل مستحيلة في بعض الأوقات. لم يكن الثلج شيئًا عمليًّا فتخلصّنا منه حين اتخذنا طريق (التنميط)".

واستكمل كلامه يقول: "كذلك التلال أعاقت إيصال البضائع إلى أهلها. قد أبطأت الشاحنات والحافلات وغيرهما. لذلك..." سكت

سكتةً وصنع بيده حركة كأنه ينسف بها التلال نسفًا ثم ختم حديثه قائلًا: "(التنميط)".

عقد (جوناس) حاجبيه قائلًا: "وددت لو ظلت هذه الأشياء بين أيدينا. لعلي أتردد إليها بين الفينة والأخرى".

تبسّم المسن قائلًا: "وأنا كذلك. ولكن ذلك الخيار ليس بأيدينا".

قال (جوناس) يقترح: "ولكن يا سيدي، ما دام لديك هذه القوة العظيمة...".

قاطعه الرجل مُصححًا: "بل شرف". قالها بنبرة حازمة. "لدي شرف عظيم. وأنت كذلك سوف يكون لديك شرف عظيم. وسوف تعلم حينها أن الشرف غير القوة. حسبك من الكلام الآن. ما دمنا شرعنا في الحديث عن المناخ، فسأمنحك شيئًا زائدًا. وهذه المرة لن أخبرك باسمه، لأني أريد اختبار تلقيك. ينبغي أن تعرفَ الاسم دون أن تخبر به آنفًا".

ودون الحاجة إلى إرشاد أغمض عينيه مرة أخرى. أحس يدي الرجل على ظهره مرة أخرى فمكث ينتظر.

جاءته الأحاسيس أسرع هذه المرة، ولكن لم تكن يدا الرجل على جسمه باردتين بل كانتا دافئتين. تبللت يداه شيئًا قليلًا وانطلقت الحرارة تنتشر في جسمه فمرّت بمنكبيه وصعدت إلى عنقه حتى بلغت صفحة وجهه. أحسها كذلك تجري في أعضائه التي تكسوها الثياب: كان إحساسًا غامرًا جميلًا؛ ولما أخرج لسانه يلعق شفتيه هذه المرة كان الهواء ساخنًا ثقيلًا.

لم يتحرك من مكانه. لم تكن ثم مزلجة، ولم يتغيّر وضع جسمه. إنما كان وحده في مكان ما، في العراء، مضطجعًا، وجاءته الحرارة من فوقه. لم يكن إحساسًا مُثيرًا كالزلاجة التي اخترق فيها الهواء المتجمد؛ ولكنه كان إحساسًا مريحًا يسرُّ النفسَ.

وفجأة ألقي في رُوعه الكلمة التي تمثل هذا الإحساس، وهي **أشعة الشمس**. وعرف أن مأتاها من السماء ثم انتهت الذكرى، فقال عاليًا وهو يفتح عينيه: "أشعة الشمس".

قال المسن: "أحسنت، عرفت الكلمة إذن. هذا يسهّل عليَّ عملي. لن أضطر أن أشرح لك شرحًا مفصّلًا".

"وأتتني من السماء".

"صحيح، كما كان ديدنها".

زاد (جوناس): "قبل (التنميط). وقبل (الضبط المناخي)".

ضحك الرجل وقال: "أنت تتلقى جيدًا، وتتعلم بسرعة. كم أنا مسرور منك. حسبك اليوم فما أريد أن أشق عليك. لقد بدأنا بداية لا بأس بها".

كان هناك سؤالٌ يحيك في صدر (جوناس) فقال يسأله: "سيّدي، قد أخبرتني رئيسُ الكهول -بل أخبرتْ الناس جميعًا- وأخبرتَك أنت أيضًا أنَّ التدريب سيكون مؤلمًا. لذلك خِفتُ قليلًا. ولكن ها أنا لم يصبني منه أيُّ أذى. بل استمتعت به جدًا". قالها ونظر إلى الرجل نظرة استفهام.

تنهّد الرجل وقال: "بدأت معك بذكريات السعادة. هذا ما علّمني إياه إخفاقي السابق". ثم تنّهد بضع تنهيدات عميقة وقال: "(جوناس)، اعلمْ أنه سيكون مؤلمًا. ولكن ليس بعدُ".

"إنني شجاع". قالها (جوناس) واستقام أكثر في جلسته.

نظر (المانح) إليه قليلًا ثم تبسم وقال: "أرى ذلك في وجهك. وما دمت قد سألت السؤال... أظن أنّ لدي طاقة تكفي نقل ذكرى أخرى. اضطجع مرة أخيرة".

أطاعه (جوناس) فرحًا مُبتهجًا، فأغمض عينيه ينتظر، واحس بيدي الرجل على ظهره مجددًا؛ ثم انبعثت في جسمه الحرارة كما انبعثت فيه مِن قبلُ، هي وأشعة الشمس منصبة عليه من سماء هذا الجزء الآخر الجديد من وعيه. وبينما هو مضطجعٌ يتشمّس في هذه الحرارة الجميلة الرائقة أحس بمرور الزمن. كانت نفسُه الحقيقية تعلم أنه لم يمر من الزمن إلا دقيقة أو دقيقتان؛ ولكن نفسه الأخرى التي تتلقى الذكرى أحست الساعات تمرُّ عليه مرورًا تحت أشعة الشمس. بدأ جلده يلسعه. ثنى ذراعَه متأففًا يتلمس الخلاص فأحس وجعًا شديدًا عند باطن مرفقه.

قال عاليًا: "آه"، وذهب يتقلب على السرير فصرخ يتأوه. قال في نفسه: "أليس هناك ماء ينزل علي فيزحزح عن عاتقي هذه الحرارة اللاصقة بي كأنها القميص". حتى حين ذهب يُحرِّك شفتيه ليتكلم آلمه وجهه.

علم أن هناك كلمة تصدق على هذا الإحساس، ولكنَّ الألم حال بينه وبين معرفتها.

ثم انتهت الذكرى وفتح عينيه متقبض الوجه منزعجًا. قال للرجل: "كانت حرارة مؤلمة تُذيب الدماغ. إلا أني لم أفطن إلى معرفة الكلمة التي تمثلها".

قال له المسن: "كانت **سفعة* شمسية**".

"قد أوجعتني شديدًا هذه السفعة، ولكن يسرني أنك منحتنيها. الآن أفهم أكثر ما قصدتماه حين قلتما إني سألاقي ألمًا".

لم يجبه الرجل بل سكت هنيّة ثم قال: "قُم الآن. آن آوان رجوعك إلى البيت".

فقاما معًا ومشيا إلى منتصف الغرفة، فجمع (جوناس) عليه سترته وقال: "إلى لقاءٍ. شكرًا لك على يومي الأول".

فأوما إليه الرجل. بدا مستنزفًا، عليه شيءٌ من الحزن.

ناداه (جوناس) على استحياء قائلًا: "سيدي؟".

"نعم؟ ألك سؤال؟".

"لم أعرف اسمك. ظننتك (المتلقي)، غير أنك تقول إنني منذ الآن أنا (المتلقي). لذلك لا أدري ما أناديك".

قعد الرجل على كرسيه المبطن الوثير مرة أخرى وحرّك كتفيه حركة دائرية كأنه بذلك يخفف عن نفسه شعورًا مُبرّحًا. كان كأنما قد هدّه التعب. فقال لـ (جوناس): "نادني (المانح)".

مكتبة
t.me/soramnqraa

* أي لفحة، تؤلم الجسم وتغيّر لون الجلد. يُقال سفعته النار والشمس تسفعه سفعًا.

١٢

"هل نمتَ عميقًا يا (جوناس)؟" سألته أمه في أثناء وجبة منتصف النهار. "لم تأتك أيّ أحلام؟".

فما كان من (جوناس) إلا أن تبسّم وأومأ، لا يريد أن يكذب، ولا ينوي قول الصدق. قال: "نمت عميقًا جدًّا".

"وددتُ لو نام هذا مثلك"، قالها أبوه وهو منحن عن كرسيه يداعب قبضة (جابرييل) التي يلوّح بها. كانت السلة موضوعة على الأرض إلى جانبه، وفي زاويتها عند رأس (جابرييل) جلس فرسُ البحر المحشو يحدق بعينيه الشاحبتين.

"كذلك أنا"، قالتها وهي تقلب عينيها ضيقًا وانزعاجًا. "إنه عكر المزاج في الليل، كثير الشكوى".

لم يسمع (جوناس) ليلًا بكاء الطفل؛ لأنه كان غارقًا في نومه كعادته، ولكن لم يصدق في أنه لم يحلم.

لقد تزلّج مرة بعد مرة في أثناء نومه منحدرًا على ذلك التل المغطى بالثلوج. وكان في كل مرة يشعر بأنه قاصد شيئًا قابعًا وراء الموضع الذي أوقف فيه ركامُ الثلج المزلجة، غير أنه لم يستطع معرفة ما هو.

ظلت تروادُه بعدما استيقظَ إرادةٌ، بل حاجةٌ، إلى أن يبلغ ذلك الشيء الذي يقبع في الأفق. أحس في أعماق نفسه بأن ذلك الشيء كان جميلًا، وأنه كان مُرحّبًا، وأنه كان ذا شأن.

إلّا أنه لم يدرِ كيف يبلغه.

حاول أن يطرح عن نفسه ما بقي من حلمه، فقام إلى واجباته المدرسية يجمعها ويستعد لليوم.

بدت المدرسة مختلفة قليلًا هذا اليوم. كانت الدروس كما هي، كانوا يتلقون دروس اللغة والاتصالات، والتجارة والصناعة، والعلوم والتكنولوجيا، والسياسة والدعاوى المدنية، ولكن ما إن تأتي فسحتا الترفيه ومنتصف النهار حتى يأخذ لأبناء الاثنتي عشرة في الحديث، كلٌ يصف لصاحبه كيف كان أول أيام تدريبه. كانوا جميعًا يتحدثون في نفس الوقت، كلٌ يقاطع صاحبه ويلفظ بسرعة اعتذار المقاطعة المقرر، ثم ينسى ويقاطع مجددًا من شدة حرصه على وصف تجربته الجديدة.

جلس (جوناس) يصغي إليهم. كان منعه من التحدث في شأن تدريبه محفورًا في ذاكرته، إلا أنَّ التحدث في شأنه كان مُحالًا؛ فلم تكن هناك من طريقة يصف بها لأصحابه ما أحس به في غرفة (البناء الملحق)، فأنّى تصف المزلجة دون أن تصف الثلج والتل، وأنّى تصفهما لشخص لم يقف على مرتفعٍ من قبلُ ولا هبت عليه ريحٌ، ولا عرض له ذلك الشيء البارد الشبيه بالريش الذي يستهوي الألباب ويستلب العقول؟

بلى، قد تدربوا سنين طويلة على دقة استعمال اللغة، ولكن أيّ كلمات يستطيع بها قائلها نقل إحساس أشعة الشمس إلى شخص آخر؟ لذلك آثر (جوناس) السكوت والإنصات.

بعد انقضاء الساعات المدرسية صاحب (فيونا) مرة أخرى إلى دار المسنين.

قالت: "بحثت عنك أمس، كي نرجع إلى البيت معًا. كانت دراجتك لا تزال في مكانها، فوقفت أنتظر قليلًا حتى تأخر الوقت فرجعتُ وحدي".

قال (جوناس): "مَعذرة عن التأخر عنك".

"عذرك مقبول"، خرجت منها عفوًا.

قال (جوناس) يشرح لها: "مكثتُ أكثر مما توقعتُ".

قادت الدراجة صامتة لا تتكلم، إلّا أن في الجبين لغة لا تقرؤها إلا العيون، فقرأ (جوناس) في وجهها أنها توقعت منه أن يخبرها سبب تأخره. توقعت أن يصف لها أول أيام تدريبه، ولكن خشيت من هكذا سؤال تسري عليه قوانين البذاءة.

قال (جوناس) يذهب في الحديث مذهبًا آخر: "قد قضيتِ ساعات تطوع كثيرة مع المسنين، لن تكون هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها".

"لا، كيف، لا يزال أمامي كثير أتعمله. هناك العمل الإداري، وقوانين التغذية، وإنزال العقاب بمن عصى -أتعلمُ أنَّهم يستعملون على المسنين عصا تأديب كتلك التي تُستعمل على الأطفال؟- وهناك المعالجة المهنية والمعالجة الدوائية، وهناك نشاطات ترفيهية، و...".

بلغا الدار وأوقفا دراجتيهما.

قالت (فيونا) تعترف له: "أظن أن نفسي سوف تميل إليها أكثر من المدرسة".

"وأنا كذلك"، قالها وهو يودع دراجته في مكانها.

انتظرت لحظة لعله يسترسل في كلامه، ثم نظرت في ساعتها وحيّته بيدها، ومضت مسرعة نحو مدخل الدار.

وقف (جوناس) هنيّة بجانب دراجته موقف الذاهل المشدوه؛ فقد حدث ذلك الشيء مرة أخرى: ذلك الشيء الذي علم الآن أنه يُدعى: "رؤية ما وراء الحجب" ولكن هذه المرة كانت (فيونا) هي التي أصابها هذا التغيّر العابر العصي عن الوصف. لمّا مضى بنظراته على آثارها وهي تدخل من الباب، حدث التغيّر، ولكن حدثته نفسه بعدها -محاولًا استحضار هذا التغيّر مرة أخرى- أنها لم تتغير كلها، بل كأن التغيّر لم يكن إلا في شعرها، ولم يستمر إلا طرفة عين.

قلّب الأمر في ذهنه، فلاحظ أن ذلك التغيّر بدأ يأتي أكثرَ من ذي قبل. أتى أول مرة التفاحة منذ بضعة أسابيع، ثم أتى وجوهَ المشاهدين في المحفل منذ أيام معدودات، ثم أتى منذ قليل شعر (فيونا).

غض (جوناس) طرفه عنها، ومال ببصره إلى الطريق وقصد (البناء الملحق) عازمًا أن يسأل (المانح) عن ذلك الأمر.

رفع المُسن نظره إليه متبسمًا حين دخل عليه الغرفة. كان جالسًا عند السرير ينتظر، بدا أنشط من أمس، قد استعاد بعض همته، طلق الوجه متهللًا من مقدم (جوناس).

قال: "مرحبًا. هلمَّ. علينا أن نبدأ الآن. قد تأخرت دقيقة كاملة".

ابتدأه (جوناس) قائلًا: "معذر..." ثم أمسك عن الكلام، مرتبكًا، بعدما تذكر أنْ لا مكان بعدُ للاعتذارت.

خلع سترته، وقصد السرير وقال: "ما حملني على التأخر إلا عارض اعترضني. وأرغب في سؤالك عنه إن لم تمانع".

- اسأل أيّما شئت.

حاول (جوناس) أن يجمع شتات ذهنه المبعثر؛ ليستطيع أن يشرحه شرحًا واضحًا لا غموض فيه ولا إبهام ثم قال: "أظنه ذلك الذي تسميه رؤية ما وراء الحجب".

أومأ (المانح) برأسه وقال: "صفه لي".

أخبره (جوناس) ما أصاب التفاحة، وما أصاب الحضور حين كان واقفًا على المنصة. "ثم اليوم، منذ لحظة، خارج البناء، حدث الأمر نفسه لصديقتي (فيونا). لم تتغيّر هي نفسها، ولكن تغيّر فيها شيء ما ولم يستمر إلا طرفة عين. بدا شعرها مختلفًا؛ ليس في هيئته ولا طوله... لا أستطيع أن..." وانعقد لسانه عن الكلام يائسًا؛ لأنه لا يستطيع أن يفهم ولا أن يصف الذي وقع.

ثم قال: "تغيّر شعرها. لا أدري كيف ولا لمَ".

"هذا ما حملني على المجيء متأخرًا". قالها يختم كلامه وهو ينظر إلى (المانح) حائرًا مستفهمًا.

وإذا المسن يسأله سؤالًا كأنه لا يمت بصلة إلى (رؤية ما وراء الحجب): "حين منحتك أمس تلك الذكرى، أول ذكرى، تلك الركوبة على المزلجة، هل نظرت حينها حولك؟".

أشار (جوناس) برأسه أنْ نعم، ثم قال: "ولكن الأشياء -أقصد الثلج- الذي كان يملأ الهواء صعّب عليّ رؤية أي شيء".

- هل نظرت إلى المزلجة؟

سكت (جوناس) يفكر ثم قال: "لا. إنما شعرت بها تحتي. قد حلمت بها الليلة الماضية كذلك، ولكن حتى المزلجة لا أذكر رؤيتها في حلمي. إنما شعرت بها".

أدار (المانح) الأمر في رأسه ثم قال: "لمّا كنت أراقبك، قبل أن يقع عليك الاختيار، ظهر لي أنك ربما تملك هذه القدرة، وما تصفه أنت الآن يؤكد ذلك. لما كنت في مثل سنك، بدأت تأتيني، ولكن على صورة غير التي تصف. كانت تأتيني... لا، لن أصفها لك الآن؛ فأنت لن تفهمها الآن، ولكن أظن أنني أستطيع تخمين كيف يأتيك الأمر. دعني أولًا أُجرِ اختبارًا صغيرًا لأستوثق. اضطجع".

اضطجع (جوناس) على السرير ويداه على جانبيه. كان مرتاحًا في ضجعته هذه. أغمض عينيه، وانتظر لمسة يدي (المانح) المألوفة.

ولكن لم تأتِه يداهُ، ولكن أرشده (المانح) أنْ: "استدعِ ذكرى الركوبةِ على المزلجة. لا تستدع إلا أولها، حين كنتَ مُشرفًا على قمة التل، قبل أن يبدأ التزلج، ولكن أريدك هذه المرة أن تنظر أسفلك إلى المزلجة".

التبس كلامه على (جوناس) ففتح عينيه وسأله في أدب: "معذرة، أليس عليك أن تمنحني الذكرى؟".

- لقد أصبحت ذكراك الآن، ليست ذكراي لأستدعيها مرة أخرى. لقد ذهبت عني.

- ولكن أنّى لي أن أستدعيها؟

- ألست تذكر أحداث السنة الماضية أو السنة التي كنت فيها في السابعة والخامسة؟

- بلى.

- إن الأمر هو هو. كل امرئ في المجتمع لديه ذكريات جيل واحد كتلك، ولكن أنت الآن تستطيع الرجوع إلى ما وراء ذلك. حاول. ما عليك إلا أن تشحذ ذهنك.

أغمض (جوناس) عينيه مجددًا، وتنفّس تنفّسًا طويلًا، وفتّش في طيات وعيه عن المزلجة والتل والثلج.

وإذا هو يجدها دون جهد. كان يجلس مرة أخرى تحيطه تلك الدوامة من الكسف الثلجية*.

تبسم (جوناس) مُبتهجًا وطَفِقَ ينفثُ نَفَسَه الذي يشبه البخار، وينظر إليه مغتبطًا مستمتعًا، ثم نظر أسفله كما أرشده (المانح) فرأى يديه اللتين كساهما الفرو مجددًا، تمسكان بالحبل، ورأى رجليه فأزاحهما عن المزلجة ينظر.

حدّق إليها ذاهلًا مُستغرقًا، فهذه المرة لم يكن الأمرُ عابرًا، هذه المرة كان يرى في المزلجة ذلك الشيء الغامض الذي رآه في التفاحةِ وشعر (فيونا) وتلاشى عنهما في لحظته كأنْ لم يكن. ظل يطرفُ بعينيه وينظر، ويحدّق فلم تتغير المزلجةُ، بل ظلت على أيّ كان اسم ذلك الشيء الذي ظلت عليه.

فتح (جوناس) عينيه وكان لا يزال مضطجعًا على السرير. كان (المانح) ينظر إليه يراقبه في فضول.

- نعم، رأيته على المزلجة.

* الكسف الثلجية ترجمة لـ Snowflakes، واحدها كسفة، وهي قشيرة أو رقاقة من ثلج متساقط، لها أشكال فريدة بديعة تسر الناظرين. (المورد الحديث)

- إذًا أجرّب معك شيئًا أخيرًا. انظر هناك إلى خزانة الكتب. هل ترى أعلى صفٍ من الكتب، هذه الكتب التي خلف الطاولة، الموضوعة على آخر رف من الرفوف؟

ألقى (جوناس) نظره يبحث عنها، فلما وقعت عليها عيناه حدق إليها، فتغيّرت، ولكن كان التغير عابرًا ما لبث أن ذهب عنها.

قال (جوناس): "حدث ذلك الشيء، حدث للكتب، ولكن ذهب عنها مجددًا".

قال (المانح) "كنتُ مُصيبًا إذًا، لقد بدأتَ رؤية اللون الأحمر".

- رؤية ماذا؟

تنهّد (المانح) وقال: "كيف لي أن أشرح ذلك؟ ذات مرة، قديمًا في زمن الذكريات، كان كلُّ شيء له هيئة وحجم، كما هي عادة الأشياء الآن، ولكن كانت لها كذلك صفة تُدعى (اللون). كانت هنالك ألوان كثيرة، وكان منها (الأحمر). وهذا هو اللون الذي بدأتَ تراه. صديقتك (فيونا) شعرها أحمر، ولا أخفيك هذا اللون من الشعور مميز جدًّا؛ قد رأيتُه من قبلُ. كان ذكرك لشعرها هو الحبل الذي قادني إلى معرفة أنك ربما بدأت الآن ترى الأحمر".

- ووجوه الناس؟ تلك التي رأيتها في المحفل؟

هز (المانح) رأسه نافيًا وقال: "لا، بشرات الناس ليست حمراء، ولكن فيها بعض درجات الأحمر. مرّ على الناس زمانٌ كانت فيه بشراتهم مختلفة الألوان. كان ذلك قبل (التنميط). اليوم البشرات كلها واحدة، وما رأيته أنت هي درجات الأحمر. لعل ذلك اللون الذي

ظهر على وجوه الحضورِ لم يكن شديدًا أو قويًّا كلون التفاحة أو شعر صديقتك".

فإذا (المانح) يضحك ويقول: "لم نُتقن قطّ (التنميط) حق الإتقان. يخيّل إليّ أن علماء الجينات لا يزالون يعملون بجد طمعًا في إصلاح أخطائه التي تظهر من حين إلى حين. شعرٌ كشعر (فيونا) لا بد يجن جنونهم".

كان (جوناس) مُنصتًا إليه شاحذًا ذهنه يحاول أن يفهم. قال: "والمزلجة؟ كان فيها الشيء نفسه، أقصد هذا اللون الأحمر، ولكنّها لم تتغير أيّها (المانح). ظلت كما هي".

- لأنها كانت ذكرى منذ زمن الألوان.

- لقد كان... ليتَ اللغة كانت أدق لتسعفني في موقفي هذا! كان اللون الأحمر جميلًا جدًّا!

أومأ (المانح) برأسه قائلًا: "صدقت".

- هل ترى الأحمر في جميع الأوقات؟

- بل أراها كلها. الألوان كلها.

- وهل سأراها أنا كذلك؟

- ستراها كما تراني الآن. حين تنتهي من تلقي الذكريات. فأنت تستطيع رؤية ما وراء الحجب. وفوق تحصيلك للألوان سوف تحصّل الحكمة. كل ذلك وزيادة.

لم يكن (جوناس) يحفل بعدُ بالحكمة. كانت الألوان هي التي أسرت قلبه، وملكت عليه لبّه. "لمَ لا يستطيع أحد رؤيتها؟ لمَ اختفت الألوان؟".

هز (المانح) كتفيه وقال: "اتخذ قومنا هذا الخيار، أقصد خيار (التنميط). وكان ذلك قبلي، وقبل الذين قبلي، وقبل الذين قبلهم وهكذا حتى زمن سحيق. تخلّينا عن الألوان حين تخلينا عن أشعة الشمس والاختلافات". وأطرق إطراقة قصيرة، ثم قال: "ملكنا يد التصرف في أشياء كثيرة، ولكن اضطرنا ذلك إلى أن نرخي أيدينا عن أشياء أخرى".

قال (جوناس) بنبرة حادة: "لم يكن ينبغي أن نفعل ذلك!".

وقف (المانح) موقف الذاهل المشدوه حين رأى اليقين الذي خالط لهجته، ثم قال مازحًا باسمًا: "لقد بلغت هذه النتيجة مبكرًا جدًّا. استغرقتْ هذه النتيجةُ مني سنين. لعلَّ الحكمة تأتيك أسرع كثيرًا مما أتتني".

ألقى نظرة على ساعة الحائط وقال: "اضطجع الآن. أمامنا شغل طويل".

وبينما هو يضطجع مرة أخرى قال يسأله: "أيّها (المانح)، كيف كان الأمر معك حين كنت تتدرب لتصبح (المتلقي)؟ قلتَ لي إن (رؤية ما وراء الحجب) حدثت لك، ولكن على صورة غير الصورة".

وضع يديه على ظهره وقال: "يومًا ما. لعلي أخبرك يومًا ما. الآن علينا أن ننتبه إلى شغلنا. وقد فكرت في طريقة تعينك على فهم ظاهرة الألوان. أغمض عينيك واثبت. سأمنحك ذكرى قوس قزح".

١٣

مرّت أيام وأسابيع. تعلّم (جوناس) من الذكريات أسماء الألوان؛ انتهى الآن إلى رؤية الألوان كلها في حياته العاديّة (على علمه أنها لم تعد عاديّة، ولن تعود كذلك أبدًا). ولكنّ الألوان لم تبقَ. قد يلمح الأخضر في الحشائش التي تحيط بالساحة المركزية، أو في شجيرة ما على ضفتي النهر، أو يلمح البرتقالي الزاهي في ثمار القرع التي تأتي بها الشاحنات من الأراضي الزراعية خارج حدود المجتمع، ولكن ما هي كلمحة البصر حتى يختفي مرة أخرى عائدًا إلى درجته الرتيبة عديمة اللون.

أخبره المانح أنه سيظل كذلك زمنًا طويلًا جدًّا قبل أن تثبت له الألوان.

قال (جوناس) بنبرة يشوبها غضب: "ولكنني أريدها! ليس عدلًا أن تظل الأشياء دون ألوان!".

"ليس عدلًا؟" قالها (المانح) وهو ينظر إليه في فضول. "اشرح ماذا تقصد".

"أقصد..." اضطر (جوناس) إلى الإمساك عن الكلام ليفكر، ثم قال: "لو كانت كل الأشياء متماثلة، إذًا لن يكون للمرء أي خيارات! أريد أن أستيقظ في الصباح، وأقرّر ما شئت أن أقرّر! أألبس مثلًا سترة زرقاء أم حمراء؟".

ونظر إلى نفسه يحدق إلى قماش ملابسه الخالي من اللون ويقول: "ولكن انظر، هو هكذا دائمًا".

ثم ضحك قليلًا، وقال: "أعلم أن ما يلبسه المرء ليس أمرًا ذا بال يستحق أن يُحفل به، ولكن...".

قاطعه (المانح) يسأله: "تقصد أن أمر الاختيار نفسه هو الذي يشغلك، أليس كذلك؟".

أومأ (جوناس) برأسه ثم قال: "هذا أخي الصغير... لا هذا ليس دقيقًا، فهو ليس بأخي، ولكن ذلك الطفل الجديد الذي تتولي أسرتي شؤونه وترعاه...".

- تقصد (جابرييل)؟ أنا على علم به.

- نعم، أصبح يتعلم الكثير. يمد يده ينتزع منا الألعاب حين نمسك بها ونهزهزها أمام عينيه. أبي يقول إنه إذ يفعل ذلك يتعلم مهارة التحكم في عضلاته. كم هو طفل رائع جميل!

أومأ (المانح) برأسه.

- كنتُ أفكر ما دمت أستطيع الآن رؤية الألوان، على الأقل من حينٍ إلى حين، أرأيت إن وضعنا بين يديه شيئين أحدهما أحمر قانٍ والآخر أصفر فاقع، ثم خيّرناه بينهما؟ أتقصد بدل الأشياء التي على نمط واحد.

- حينئذٍ قد يخطئ الاختيار.

"نعم، نعم". صمت (جوناس) هنيّة يتأمل ثم قال: "أرى ما ترمي إليه. لن يكون أمر اختيار لعبة ذا بال، ولكن بعدها يصبح خطيرًا، أليس كذلك؟ نحن لن نخاطر فنترك الناس يختارون أيّما شاؤوا".

- تراه غيرَ آمن؟

"بلى غير آمن"، قالها (جوناس) دون تردد. "هَبْهم سُمح لهم أن يختاروا أزواجهم؟ وأخطؤوا الاختيار؟ أو هَبْهم"، قالها يستكمل كلامه وهو يضحك على عبث الخاطرة، "اختاروا وظائفهم بأنفسهم؟".

"أمر مخيف، أليس كذلك؟" قالها (المانح).

ضحك (جوناس) وقال: "بل مرعب. لا أستطيع حتى تصوره. ينبغي علينا أن نحمي الناس من الاختيارات الخاطئة".

- ذلك آمن.

- نعم، آمن كثيرًا.

لمّا تحولا في حديثهما إلى ذكر أشياء أخرى كان (جوناس) لا يزال كاسف البال قد ثارت في نفسه ثورة من ثورات اليأس يتساءل: لمَ لم أفهم؟

كانت تأخذه في أكثر الأوقات غضبة: إما من زملاء مجموعته، فكيف لهم أن يرضوا بحيواتهم الكئيبة الموحشة قياسًا بحياته التي بدأت تضيء له الآن وتتفتّح كما تفتح الزهرة العطرة الجميلة، وإمّا من عجزه عن أن يضيء لهم ظلمة الوحشة وينشر فيهم شذى زهرته المتفتحة فتمتلئ حيواتهم حُسنًا وبهاءً.

ولكن لمَ لا أحاول؟ عزم أمره دون أن يستّأذن (المانح)، فقد خشي ألّا يأذن له. مضى إلى أصدقائه لعله يستطيع أن يبلغَ معهم ما يؤمله.

نادى صاحبه ذات صباح قائلًا: "(آشر)، هلّا أمعنت النظر في هذه الزهور". كانا واقفين بجانب مزهر (إبرة الراعي) المزروع على مقربة

من قاعة السجلات العامة. وضع يديه على كتفي (آشر) وأمعن في اللون الأحمر الذي في بتلات الزهور محاولًا جهده أن يستبقي اللون أطول زمن يستطيعه، ومحاولًا كذلك أن ينقل إدراكه للون الأحمر إلى (آشر).

"ما لك يا (جوناس)؟ ما الخطب؟" قالها قلقًا مرتابًا وأفلت من يدي (جوناس)؛ فقد عُدَّ لمس مواطن مواطنًا آخر خارج وحدته الأسرية فعلًا بذيئًا فاحشًا.

"لا، لا شيء. حسبتها ذابلة وأن علينا أن نُخطرَ (طاقم البُستانيّين) بحاجتها إلى مزيد من السُقيا". قالها، وتنهد تنهيدة، ثم تولّى عنه.

انقلب إلى البيت ذات ليلة مثقلًا يحمل في صدره علمًا جديدًا. قد اختار (المانح) ذكرى مُفزعة تزعج الراحة، وتقلق السكينة. وضع يديه عليه فإذا (جوناس) في مكان مجهول غريب، مكان حارّ عبثت به أيادي الريح تحت سماء زرقاء مترامية الأطراف. لم يكن فيه إلا خُصل من الحشائش المتناثرة، وبعض الشجيرات والصخور المبعثرة، دار بنظره حوله فلاح له على مقربة منه مكان أكثر خضرة، مكان ذو شجر قصير ممتد يعترض السماء. قرعت مسامعه ضوضاء ما، أزيز صاخب لأسلحة -أُلقي في رُوعه أنْ اسمَها بنادقُ آلية- أتبعها صراخ وصوت ارتطام عظيم لشيء هوى قاطعًا بِهُوِيِّه أغصانًا من الشجر.

سمع أصواتًا ينادي بعضها على بعض. ذَكَرَ (جوناس) وهو ينظر متخفيًّا وراء بعض الشجيرات ما أخبره به (المانح) حين قال: "مرّ على الناس زمان قبلُ كانت فيه بشراتهم مختلفة الألوان". كان من هؤلاء الرجال اثنان ذوا بشرة بنية داكنة، أما سائر من معهما فكانت بنية فاتحة. لمّا مشى حتى داناهم وجدهم ينزلون بسكاكينهم الحادة

عدّة نزلات على نابَي فيلٍ طريحٍ بلا حركة وينتزعونهما وهما يقطران دمًا، كانوا؛ إذ يقطّعون نابيه وينتزعونهما كأنهم يقطعون قلب (جوناس) تقطيعًا ويتنزعونه من مقر مكانه انتزاعًا. حينئذٍ غمره مفهوم جديد للون الأحمر.

ثم تولّوا منطلقين نحو الأفق على عربة تلفظ الحصى من أُطُرِها الدوّارةِ، فطارت حصاة فأصابت جبينه فلسعته، ولكنّ الذكري استمرت، وكان (جوناس) يتحرّق من داخله يريدها أن تنتهي.

رأى فيلًا آخر يخرج من بين الأشجار حيث وقف متخفيًا. مشى بطيئًا نحو الجسد المشوّه، وأخفض رأسه ينظر. مسّد بخرطومه المتعرج الجثة الضخمة، ثم تناول أغصانًا تشابكت فوقه فكسرها وغطّى بها معظم هذا الجسد السمين الممزق.

ثُمَ أمال رأسه العظيم إلى الخلف، ورفع خرطومه، وأطلق صرخة عاتية ملأت أرجاء الطبيعة الخالية. لم يسمع (جوناس) صوتًا كهذا الصوت من قبل. كان صوتًا يمتلئ حزنًا وغضبًا، وكان كأنه لا يكاد ينقطع. ثقلت عليه هذه الذكرى وضاق نَفَسُه كأن حجرًا من الأحجار العاتية ممتد على صدره يمنعه التنفس والحركة.

كان لا يزال يسمع صراخ الفيل بعدما فتح عينيه واستلقى جزعًا قريحَ القلب على السرير حيث اعتاد تلقي الذكريات. نهض قائمًا، ثم ركب دراجته وانكفأ راجعًا يظن أنه قد شفي مما به، إلّا أنه لم يبتعد قليلًا حتى عاوده صراخ الفيل ففزع وخفق قلبه حتى كاد ينقلب عن دراجته فتمالك نفسه، واستمسك، ومضى لسبيله يعالج همًّا ينخر في حلقه نخرًا.

وبعد أن عادت إليه نفسه، نادى أخته يسألها في المساء حين تناولت من الرفِّ أداة ترويحها؛ ذلك الفيل المحشو. "أتعلمين أنه كان هناك يومًا ما فيلة؟ فيلة تدب فيها الحياة؟".

خفضت رأسها تنظر إلى أداة الترويح التي عبثت بها يدُ البلى، وتبسمت ضاحكة، ثم قالت مترددة شاكّة: "نعم أعلم. وهل في ذلك شك يا (جوناس)؟".

دنا منهم (جوناس)، وجلس إليهم، وأبوه يحل شرائط شعرها ويمشّطه. وَوَضع يديه على كتف كل منهما مستغرقًا يحاول أن يمنحهما قسطًا من الذكرى، ليس ذلك الصراخ المؤلم الذي أخرجه الفيل كأنما يلفظ أفلاذ كبده، ولكن أراد أن يمنحهما الفيل نفسه؛ ذلك المخلوق الضخم الهائل، ولمسته الرقيقة التي رثى بها صاحبه في ختام الذكرى.

ولكنْ أبوه ظلَّ يُمشّط شعر (ليلي) الطويل المسترسل، وبينما (جوناس) واضع يديه تلوّت (ليلي) تحتهما متململة تقول: "ويحك يا (جوناس)، يدك تؤلمني".

تمتم (جوناس) قائلًا: "معذرة على إيلامك"، ونزع يده عنها.

"عذرك مقبول"، قالتها وهي تمسح بيدها الفيل الجامد الخالي من الحياة.

سأل (جوناس) المانح ذات مرة وهما يتجهزان لعمل اليوم قائلًا: "أليس لك زوجة؟ ألا يسمحون لك أن تقدم طلبًا على واحدة؟" وعلى أنه عُفي من قوانين البذاءة، كان يعلم أن السؤال بذيء، ولكن (المانح) حثه على أن يسأل أسئلته كلها، ولم يكن يظهرُ عليه خجل ولا استياء حتى من أخص الأسئلة.

ضحك (المانح) وقال: "لا، ليس هناك قانون يمنعني ذلك. ونعم كان لي زوجة. لعلك نسيت كم أنا طاعن في السن يا (جوناس). زوجتي السابقة تعيش الآن مع الراشدين غير ذوي النسل".

"نعم نعم، كيف نسيت"، لقد نسي (جوناس) كبر (المانح) الواضح. حين يكبر الراشدون تتبدل حيواتهم. لا يُطلب منهم بعدئذٍ أنْ يكوّنوا وحدات أسرية. سوف يذهب أبوا (جوناس) ليعيشا مع الراشدين غير ذوي النسل حين يكبر هو و(ليلي) ويستقلان.

- سوف يرخص لك في طلب الزوجة يا (جوناس)، إن أردت. ولكن حذارِ، سيكون الأمرُ صعبًا عليك؛ لا بد أن تغيّر ترتيبات عيشك عن ترتيبات سائر الوحدات الأسرية؛ لأن الكتبَ ممنوعة عن المواطنين لا يسمح بها إلا لنا نحن الاثنين.

أجال (جوناس) نظره في هذه الصفوف الكثيرة من المجلدات. كانت تتراءى له ألوانها من حين إلى حين. لم يفتح (جوناس) أيًّا من الكتب بعدُ؛ فالوقت الذي يقضيانه معًا تنهكهما في أثنائه المحادثات ويستنزفهما نقل الذكريات، ولكنّه اطلع على عناوين الكتب بين الفينة والفينة وعلم أنها تحوي جميع معارف القرون السالفة، وأنها يومًا ما سوف تكون له.

- إذًا لو كان لي زوجة، وربّما أطفال أيضًا، فعلي إذًا أن أخفي عنهم الكتب؟

أومأ (المانح) تصديقًا وقال: "صحيح، لم يُسمح لي أن أشرك زوجتي في قراءة الكتب، ثُمَّ إن هناك صعوبات أخرى سوف تواجهها. أتذكر القانون الذي نُصَّ فيه أنْ: لا يُسمح لـ (متلقي الذكريات) أن يتحدث في شأن تدريبه؟".

أشار (جوناس) برأسه موافقًا. لا شك أنه كان يذكر ذلك القانون. فقد بان له أنه أكثرُ قانونٍ مُخيّب للآمال بين سائر القوانين التي وجب عليه اتباعها.

- حين تصبح (المتلقي) الرسمي بعدما ينقضي تدريبك ستُفرض عليك قوانين جديدة لا عهد لك بها. هذه هي القوانين التي تسري عليَّ أنا. ولن تستغرب إذا قلت لك إنني ممنوع من الحديث في شغلي مع أي شخص غير (المتلقي) الجديد. ألا وهو أنت؛ لذلك سوف يكون هناك جزء كبير من حياتك لن تستطيع إشراك أسرتك فيه. إنه أمر عسير تستثقله النفس يا (جوناس)... أنت تعي أنها هي الآن كل حياتي، أليس كذلك؟ أقصد الذكريات؟

أجابه (جوناس) بإيماءة من رأسه، ولكن حارت نفسه فتساءل: أليست الحياة هي مجموع الأشياء التي نفعلها كل يوم؟ لم يكنْ هناك شيء غير ذلك، ثم قال لـ (المانح): "قد رأيتك قبلُ تتمشى".

تنهد (المانح) وقال: "بلى. أتمشى، وأتناول طعامي في أوقات الوجبات الرسمية. وحين تستدعيني لجنة الكهول أمثل بين أيديهم فأحيطهم بنصحي".

"وهل تنصحهم دومًا؟" خشي (جوناس) أن يأتي عليه يوم يكون فيه هو المخول بإسداء النصح إلى الهيئة الحاكمة.

ولكن (المانح) قال: "لا، بل نادرًا. لا يكون ذلك إلا حين يعرض لهم شيء لا سابق علم لهم به. فيستدعونني لأستعمل الذكريات وأرشدهم، ولكنّ ذلك نادر يكاد لا يحصل. تمر عليّ أحيانٌ أتمنى فيها أن يستظلوا بحكمتي، ثَمَّة أشياء كثيرة أستطيع أن أحادثهم في شأنها؛

أشياء وددت لو غيّروها، ولكنّهم لا يريدون التغيير. الحياة هنا شديدة التنظيم، سهلة التنبؤ، خالية من كل ألم. هذا ما اختاروه لأنفسهم".

قال (جوناس) معقّبًا: "لا أدري إذًا لمَ يريدون (متلقيًا) ما داموا لا يستدعونه".

"إنهم بحاجة إليّ وإليك"، قالها (المانح) مُبهمًا كلامه، ثم أردف قائلًا: "قد ذُكّروا بذلك منذ عشر سنين".

سأله (جوناس): "وما الذي حدث منذ عشر سنين؟ نعم نعم، أذكر. حاولت تدريب خليفة لك، ولكنّه أخفق. لمَ؟ لمَ ذكرتهم تلك الحادثة؟".

تبسم (المانح) تبسمًا كئيبًا وقال: "لمّا أخفق (المتلقي) الجديد، خُلي سبيل الذكريات التي تلقنها. لم ترجع إليَّ، بل ذهبت إلى...".

أمسك عن الكلام وبدا على ملامحه استشكال الأمر. قال: "لا أدري تحديدًا. ذهبت إلى حيث كانت الذكريات قبل وجود (المتلقين). مكان ما هنالك..." قالها وأشار بيده إشارة غير واضحة. قال: "ثم وصل إليها الناس. هكذا كان الأمر قديمًا. كانت الذكريات متاحة للناس كلهم. انتشرت الفوضى. وشق الأمر على الناس. ثم سكن عنهم العنت حتى خمد بعد هضمهم تلك الذكريات، ولكن ظلت هذه الحادثة تذكرهم بحاجتهم الشديدة إلى (متلقٍ) يُبقي لهم الألمَ في عقاله".

فأشار له (جوناس) قائلًا: "ولكنك بذلك مضطر إلى تجشم الألم ومقاساة غصصه دائمًا".

أومأ (المانح) أن نعم، وقال: "وأنت كذلك. هذه هي حياتي. وسوف ترثها أنت من بعدي".

سرح (جوناس) يفكر في الأمر، تُرى كيف يكون حاله في هكذا حياة، ثم قال وهو ينظر إلى الحوائط التي تمتلئ كتبًا: "ماذا تفعل غير المشي والأكل. القراءة؟ فقط؟".

هز المانح رأسه نافيًا وقال: "ما هذه إلّا أشياء أفعلها. أما حياتي فهنا".

- في هذه الغرفة؟

قال (المانح) وهو يشير بيده إلى وجهه ثم إلى صدره: "لا، ههنا، فيَّ أنا، حيث توجد الذكريات".

قال له (جوناس) متحمسًا: "علّمتنا أستاذة العلوم والتكنولوجيا كيف يعمل الدماغ؛ إنه حافل بالنبضات الكهربائية، مثله مثل الحاسوب. إن حفزت جزءًا منه مستعملًا قطبًا كهربائيًا فستجده..." انعقد لسانه عن النطق حين رأى في وجه (المانح) نظرة استنكار.

قال (المانح) بنبرة قاسية: "أولئك لا يعقلون شيئًا".

صعق (جوناس) من مقالته واضطرب اضطرابًا شديدًا. لقد تجاهلا منذ أول يوم قوانين البذاءة كأن لم تكن سارية عليهما، وقد طمأن ذلك (جوناس) الآن. إلّا أن مقالته هذه كانت مختلفة، قد تجاوزت حد البذاءة ببعيد. كان هذا اتهامًا فظيعًا. هبْ أن أحدهم سمعه؟

ألقى نظرة سريعة على المذياع مُشفقًا، يخشى أن تكون اللجنة تستمع كعادتها، ولكنّ المفتاح كان مغلقًا، كما هو حاله في أثناء جلساتهما.

همس (جوناس) قائلًا وهو يهز رأسه هزة المرتاب: "لا يعقلون شيئا؟ ولكن أساتذتي...".

صنع المانح بيده حركة سريعة كأنه لا يبالي، وقال: "أساتذتك مدربون تدريبًا متقنًا. هم يعلمون حقائقهم العلمية. كل الناس يتدربون جيدًا استعدادًا لوظائفهم. جملة الأمر أنه... من دون الذكريات كل ذلك لا معنى له. لقد حمّلوني أنا هذا العبء، وكذلك (المتلقي) السابق والذي قبله".

"والذي قبله، والذي قبله، والذين قبله". قالها (جوناس) متوقعًا العبارة التي تأتي بعدها دائمًا.

تبسم (المانح) تبسمًا غليظًا على غير العادة وقال: "أصبتَ. ثم تأتي أنت من بعدي. وإنه لشرف عظيم".

- نعم يا سيّدي. قد أخبروني بذلك في المحفل. أعظم شرف.

كان المانح في بعض الأيام يصرفه إلى البيت دون تدريب الظهيرة.

كلما دخل عليه فوجده ساهم الوجه محدودبًا يهز جسمه هزة يسيرة مُقبلًا مدبرًا علم (جوناس) أنه لا شك مصروف.

"انصرف. أنا أتألم اليوم. عُد غدًا".

هكذا كان يقول (المانح) ضائقًا مضطربًا.

في تلك الأيام يذهب (جوناس) قلقًا هامدًا ويتمشّى وحده بجوار النهر. في هذا الوقت تكون الطرق خالية، إلّا من طواقم التوصيل وعمّال المناظر هنا وهناك. أمّا الصبيان الصغار فيكونون في مركز رعاية الطفل بعد المدرسة، والكبار مشغولون بساعات التطوع أو التدريب.

وبينما كان يقضي وقته وحيدًا أخذ يختبر تطور ذاكرته، فنظر في الحدائق يحدّق لعل اللون الأخضر يخرج له من مكمنه؛ فلمّا لاح له

قبض عليه ليستبقيه ويزيدَ دُكنتَه ويحافظ عليه ما استطاع، وما زال كذلك حتى تخاذلت أعضاؤه وثقل عليه رأسُه فتركه يتلاشى ويضمحل.

ثم أرسل بصرَه إلى السماء الرتيبة عديمة اللون وحدق إليها يُريدُ اللون الأزرق، وتذكّر أشعة الشمس حتى أحس بدفئها يتمشّى في أعضائه للحظة يسيرة.

ثم بلغ أول الجسر الذي يصل بين ضفتي النهر ذلك الجسر الذي لا يُسمح للمواطنين بمجاوزته إلا في قضاء شغل رسمي. لقد جاوزه (جوناس) من قبل في رحلاته المدرسية وزياراته للمجتمعات النائية، فعلم أن الأرض وراء هذا الجسر كانت كالأرض التي يعيش عليها، رتيبة ومنظمة جدًّا، فيها الحقول الزراعية نفسها. لم تختلف تلك المجتمعات الأخرى التي بلغتها قدماه إلا اختلافًا يسيرًا في شكل المساكن والجداول الدراسية.

أخذ يتساءل وذهب به ذهنه كل مذهب، تُرى ماذا يقبع في الأماكن البعيدة التي لم يذهب إليها قطّ؟ فالأرض لم تنته عند تلك المجتمعات. أثمَّ تلال في (أرض المجهول)؟ أثمَّ أماكن فسيحة شاسعة عصفت بها أيادي الرياح فاقتلعت منها ما شاء لها أن تقتلع كذلك المكان الذي رآه في ذكرى موت الفيل؟

"أيها (المانح)"، ناداه يسأله ذات ظهيرة بعد يوم من تلك الأيام التي صُرف فيها دون أن يتلقى ذكريات، "ما الذي يؤلمكَ؟".

لما وجد (المانح) صامتًا تبسّط (جوناس) يقول: "أخبرتني رئيسة الكهول في بادئ الأمر أن تلقي الذكريات يؤلم ألمًا هائلًا فظيعًا. وقد ذكرتَ لي يومًا أنه لما أخفق المتلقي السابق تسربت ذكريات مؤلمة عمّت المجتمع كله".

ثم تبسّم وقال: "ولكنّني لم أعانِ أيّها (المانح). لم أذق ما ذكرتماه. نعم، أذكر تلك السفعة الشمسية التي عرّضتني لها في أول يوم جئتك فيه، ولكنّ ألمها كان محتملًا. ألا تخبرني بذلك الشيء الذي يجعلك تكابد هذه المكابدة العظيمة لعلك إن منحتني إياه خفف عنك بعض الألم؟".

أومأ (المانح) مجيبًا طلبه وقال: "اضطجع إذًا. أظن أنه آن الأوان. لن أستطيع أن أدرأ عنك ذلك أبد الدهر. سوف تضطر إلى أخذه كله في النهاية على كل حال".

"دعني أفكر"، قالها و(جوناس) مضطجع على السرير خائفًا يترقب.

ظل صامتًا هنيّة ثم قال: "قد قررت إذًا. تعال نذهب مرة أخرى إلى تل، ومزلجة".

ثم وضع يديه على ظهره لينقله إليه.

١٤

كانت هذه الذكرى تشبه سالفتها كأنها هي، ولكنَّ التلَّ بدا مختلفًا وأكثر انحدارًا، والثلج لم يكن يتساقط غزيرًا كما كان من قبل.

لاحظ (جوناس) كذلك أن الجو كان أبرد. استطاع وهو مستوٍ ينتظر عند قمة التل أن يرى أنَّ الثلج الذي تحت المزلجة لم يكن كثيفًا ولا طريًّا كما كان، بل كان صلبًا يعلوه جليد أزرق.

تحركت المزلجة إلى الأمام فتبسم (جوناس) مبتهجًا ولمعت أسارير وجهه، متطلعًا إلى ذلك الانحدار الشائق وهو يخترق به الهواء المُنعش.

ولكنَّ الزلّاجتين هذه المرة لم تستطيعا شقّ هذا التل الجليدي كما صنعتا مع التل الآخر الذي غطته الثلوج الطرية. انحدرتا بجنبهما وتعاظمت سرعة المزلجة. أمسك (جوناس) بالحبل يحاول توجيهها، ولكن الانحدار والسرعة سلباه السيطرة ولم يعد يستمتع بإحساس الحرية، بل كان فزعًا قد أُسلم أمره إلى هذا التسارع الهائل إلى أسفل على الجليد.

ظلتا تنحدران بجنبهما وتدوران وتدوران حتى اصطدمت المزلجة بنتوءٍ في التل، فطار (جوناس) عن ظهرها طيرة عنيفة طار معها قلبه فرقًا ورعبًا ثم انطرح على الأرض ورجله منثنية تحته وقرع مسامعه صوت طقطقة عظامه إثر هذا السفوط.

كشطت وجهه أطراف الجليد المسننة، وحين توقّف أخيرًا مكث مذهولًا لا يشعر لأول وهلة بشيء إلا الخوف.

ثم جاءته أولى طلائع الألم كأن نصلًا انغرز في رجله قاطعًا كلَّ عَصَبٍ فيها. وبينما هو في عذابه يتألم أُلقي في روعه كلمة "نار" وأحسَّ لهيبًا يأكل أكلًا في عظمه المتكسر ولحمه الممزق. ذهب يتحرّك فلم يقدر واستعر ألمه. صرخ صرخة عظمية، ولكن لم يكن هناك من مجيب.

أدار رأسه وأفرغ كل ما في معدته على الثلج المُتجلد وهو يبكي بكاءً تتقطع له نياط القلوب، ثُمَّ تدفّق الدم من وجهه واختلط بقيئه اختلاطًا تعافه النفوس.

أطلق صرخة هائلة: "لاااا!" ولكنَّ الصوت اختفى في فضاء الطبيعة الخالية.

وجد نفسه في غرفة (البناء الملحق) مرة أخرى يتلوّى ألمًا دامع الوجه.

ولما استعاد قدرته على الحركة هزَّ جسمه مُقبلًا مدبرًا وتنفّس تنفسًا عميقًا ليُذهب الألم الذي علق بذاكرته.

استوى جالسًا وجعل ينظر إلى رجله التي كانت مبسوطة على سريره سليمة غير مسكورة. لقد غادره ذلك المسّ الفظيع القاسي من الألم، ولكنَّ رجله ظلت تؤلمه ألمًا شديدًا، وأحس بوجهه مسلوخًا داميًا.

قال يستجدي: "هل لك أن تعطيني مسكّنًا للألم؟" كان المسكّن متوفرًا له في حياته العادية يستعمله للكدمات والجروح والأطراف

المنسحقة وآلام البطن والركب المتسلخة من السقوط عن الدراجة. يأخذ إمّا شيئًا من مرهم مخدر يدهنه، وإمّا حبة يبتلعها، وفي الحالات الصعبة الحرجة يُحقن حقنة تُذهب عنه الألم كله.

ولكنّ (المانح) أبى وحوّل وجهه.

مشى (جوناس) إلى البيت هذا المساء يجر دراجته وهو يعرج. لم تكن السفعة الشمسية التي ذاقها بشيء إذا قيست بما لقيه من هذه الذكرى، ثم إن ألمها لم يستمر، أمّا هذا فاستمر.

لم يكن الألم وهو يمشي محتملًا كما كان على التل. حاول (جوناس) أن يتجلّد ويستمسك، فأنّى يظهر منه ضعف وقد وصفته رئيسة الكهول بالشجاعة.

سأله أبوه وهم يتناولون وجبة المساء: "ما الخطب يا (جوناس)؟ ما لي أراك هادئًا لا يسمع لك صوت الليلة. هل أنت مريض؟ تريد علاجًا؟".

ولكنّ (جوناس) ذكر القوانين. لا يُسمح بتناول علاج لأي شيء يمت إلى تدريبه بصلة.

ولا يُسمح بالحديث في شأن تدريبه. لما آن آوان طقس المكاشفة الشعورية لم يقل إلا إنه متعب، وإنَّ دروسه المدرسية كانت اليوم صعبة مُنهكة على غير العادة.

مضى إلى غرفة نومه باكرًا، وأغلق الباب وسمع من ورائه أبويه وأخته يتضاحكون وهم يُحممون (جابرييل) تحميمه المسائي.

إنهم ما عرفوا الألم قطّ، قالها يحدث نفسه. فلما أدرك ما أدرك أرخيت عليه سدول الوحدة وكآبتها. مدَّ يده يمسَّد رجله التي تنبض

ألمًا ثم غلبته عيناه فنام، وظلت تراوده أحلام العذاب والعزلة على ذلك التل المُوحش، ما ينقضي حلم حتى يأتيه آخر كأن الأحلام تمالأت على ألا تتركه يهنأ بنومه.

استمر تدريبه اليومي، وضُمّن الآن كلُّ تدريب ألمًا. أضحى ذلك الألم العظيم المنبعث من رجله المصابة ألمًا خفيفًا بعدما أخذ (المانح) بيد (جوناس) وطوّف به في أعماق الماضي وعذاباته المهولة المفجعة. وكان (المانح) لطيبه وكرمه يُعقب كل تدريب بذكرى سعيدة حافلة بالألوان فمرة يذهب به في نزهة بحرية منعشة على بحيرة يتأرجّح لونها بين الأخضر والأزرق، ومرة إلى روضة تزينها زهور برية صفراء وتطير في جوها حشرات بديعة مختلفة الألوان، أو يريه قرص الشمس وهو يغرب خلف الجبال متوهجًا كاللهب الأحمر فيظل ينثر ذراته الذهبية في عرض الفضاء، وتظل قطع الأنوار تتساقط من بين فجوات الأغصان كأنها الدنانير.

ولكن هذه الذكريات لم تُسكّن استعار الألم الذي راح يتأجج بين ضلوعه وينهكه.

"لماذا؟" ناداه (جوناس) يسأله بعدما تلقّى ذكرى مؤلمة مريرة قد أهمل فيها شأنه ولم يطعم شيئًا؛ فظل الجوع يعمل فيه عمله حتى استسلمت بطنه المنتفخة وأذعنت وأخذت تتنشنج تشنجات موجعة مبرحة. "لماذا علينا أن نحمل هذه الذكريات؟".

- إنها تؤتينا الحكمة، ومن دون الحكمة لن أستطيع نصح لجنة الكهول حين يستدعونني.

تذمر (جوناس) قائلًا: "ولكن أي حكمة تاتي من الجوع؟" ظلت بطنه تؤلمه بعد انتهاء الذكرى.

قال (المانح): "منذ بضع سنين، قبل مولدك، رفع المواطنون عريضة ابتغاء زيادة معدل النسل. أرادوا أن تُكلّف كل ولّادة بأربع ولادات بدل ثلاث، ذلك ليزداد السكانُ فيزداد بازديادهم العمّال".

أومأ (جوناس) وهو منصت وقال: "يبدو اقتراحًا معقولًا".

"كانت الخطة أن تُؤوي بعض الوحدات الأسرية طفلًا آخر".

أومأ (جوناس) إيماءة أخرى وقال مُلفتًا نظره: "وحدتي تستطيع ذلك. ها نحن أولاء نُؤوي (جابرييل) هذه السنة، وما أمتع إيواء طفل ثالث".

- استنصحتني لجنةُ الكهول، فقد رأوها فكرة معقولة كذلك، ولكنّها كانت مُحدثة لم يعهدوها من قبل فجاؤوا يطلبون حكمتي.

- فاستعملت ذكرياتك؟

- نعم. أقوى ذكرى جاءتني كانت الجوع. جاءتني من أجيال مضت وخلت، منذ قرون سحيقة. انفجر التعداد السكاني وخرجت من رحمه مجاعاتٌ مؤلمة مفجعة انتشرت في الناس وأعقبتها حروب شعواء.

حروب؟ كانت كلمة جديدة على مسامعه لا يعرفها، لكن الجوع كان مألوفًا له الآن. مد يده عفوًا يحك بطنه يذكر ألم عدم قضاء حاجاتها، ثم قال: "فوصفت لهم إحساس الجوع؟".

- هم لا يريدون أن يسمعوا شيئًا عن الألم. لا يطلبون إلا النصيحة. إنما نصحت لهم أن يتجنبوا زيادة السكان.

-ولكنك قلت إن ذلك وقع قبل مولدي. فهم نادرًا ما يأتونك طلبًا للنصيحة. لا يأتونك إلا حين... ما الذي ذكرته منذ قليل؟ حين

يواجهون مشكلة محدثة لا عهد لهم بها من قبل. متى حدثت آخر مشكلة؟

- أتذكر اليوم الذي حلّقت فيه الطائرة في سماء المجتمع؟

- نعم، كنت خائفًا.

- كانوا هم كذلك. تهيؤوا ليسقطوها، ولكنهم طلبوا نصيحتي. فقلت لهم الرأي أن ننتظر.

- ولكن كيف عرفت؟ كيف عرفت أن الطيّار كان تائهًا؟

- لم أكن أعرف. لجأت إلى حكمتي التي استللتها من الذكريات. علمتُ أنه كانت هناك أزمان -أزمان عسرة مريرة- تعجّل فيها الناس تدمير آخرين من الخوف، فجرُّوا بذلك الدمار على أنفسهم.

- ذلك يعني أن لديك ذكريات دمار. وأنك مضطر إلى أن تمنحني إياها أنا كذلك لتأتيني الحكمةُ.

أشار (المانح) برأسه موافقًا.

"ولكنّها ستكون مؤلمة"، قالها (جوناس) تقريرًا لا استفهامًا.

"ستكون مؤلمة مبرّحة"، قالها (المانح) يوافقه.

- ولكن لمَ لا توزّع الذكريات على كل الناس؟ أظن أن الأمر قد يكون أسهل قليلًا إن تشاركوها فيما بينهم وإذًا لن نضطر أنا وأنت إلى أن نحمل كل هذا الأعباء على عواتقنا.

تنهد (المانح) وقال: "صدقت، ولكنّ ذلك يثقل أعباء كل امرئ منهم ويُجرّعه غصص الألم. وهم لا يريدون ذلك. من أجل ذلك كان (المتلقي) عندهم ضرورة لا تعدلها ضرورة، وشرف لا يعدله شرف.

وها هم أولاء اختاروني، واختاروك أنت كذلك، لنحمل عنهم هذه الأعباء".

سأله (جوناس) وقد تملكه الغضب: "ومتى قرروا ذلك؟ ذلك لم يكن عدلًا. تعالَ نغيّره!".

- وكيف السبيل؟ أنا لم أجد إلى ذلك سبيلًا وقد بلغت من الحكمة مبلغًا عظيمًا.

قال (جوناس) متحمسًا: "ولكن نحن اثنان الآن، لعلنا معًا نستطيع أن نفكر في شيء ما!".

كان (المانح) جالسًا يراقبه تعلوه ابتسامة ساخرة.

"لم لا نطلب تغيير القوانين؟" قالها (جوناس) يقترح.

ضحك (المانح)، فضحك (جوناس) ضحك المتردد.

قال (المانح): "قد قرروا قرارهم قبل عصري أو عصرك وقبل (المتلقي) السابق، و..." وأمسك ينتظر، فإذا (جوناس) يكمل عبارته قائلًا: "والذي قبله والذي قبله والذي قبله". كان يرى هذه العبارة حينًا مضحكة وحينًا ذات دلالة وذات شأن.

كان جوابه نذير شؤم. فقد عنى أنه لا يمكن تغيير أي شيء.

كان الطفل الجديد ينضج يومًا بعد يوم ويجتازُ اختباراتِ النضوجِ التي اختبره فيها الحاضنون كلَّ شهر؛ أصبح في وسعه الجلوس وحده والوصول إلى الألعاب الصغيرة البعيدة عن يديه والإمساك بها، وأصبح لديه ستُّ أسنان، ولكنه ظل نكد المزاج ليلًا، يبكي أكثر أوقاته، ويحتاج إلى رعاية مستمرة.

"بعد كل هذا الوقت الإضافي الذي استثمرته فيه، أرجو ألّا يقرروا تسريحه". قالها أبوه ذات ليلة بعدما أخذ (جابرييل) حمامه واضطجع محتضنًا (فرس البحر) في سريره الصغير الذي ينام فيه الآن بدلًا من السلة.

قالت الأم تقترح: "لعل ذلك يكون خيرًا له، أعلم أنك لا يزعجك السهر معه ليلًا. ولكنَّ قلة النوم أجهدتني".

"إن سرّحوا (جابرييل)، فهل نستطيع استضافة طفل آخر؟" سألت ليلي وهي منحنية بجانب سريره الصغير تصنع له وجوهًا مضحكة فيتبسم لها.

قلبت أمها عينيها استياءً من سؤالها.

"لا" قالها أبوها باسمًا وهو يعبث بيده في شعرها. "نادرًا ما تكون هناك حالة مشكوك فيها كحالة (جابرييل). ربما لن تتكرر لزمن طويل".

- دعونا من ذلك، فما زال في الوقت فسحة حتى يقضوا في هذا الأمر. الآن نحن جميعًا نستعد لتسريح ربما نضطر إلى إنفاذه قريبًا جدًّا. ستضع ولّادة ما توأمين ذكرين الشهر القادم.

"آه عليك"، قالتها الأم وهي تهز رأسها إشفاقًا. "أرجو إن كانا توأمين متماثلين ألّا تكون أنت المكلف بـ...".

قال يقاطعها: "بل أنا المكلف. هذا دوري في قائمة الأسماء. علي أن أختار من يُحضن منهما ومن يُسرَّح. عادة لا يكون الاختيار صعبًا؛ فما هي إلا مسألة وزن. نسرّح أقلهما وزنًا".

ذكر (جوناس) -وهو جالس يستمع- يوم كان واقفًا لدى الجسر يتساءل ما الذي يقبع في (أرض المجهول). أهنالك شخص ينتظر

استلام التوأم الصغيرِ المُسَرَّح؟ هل تمرّ عليه السنون دون أن يعلم أبدًا أن هذا المجتمع يعيش فيه مخلوق يشبهه تمام الشبه؟

لمعت له للحظة بارقة أمل علم بُعدَ حصولها وسذاجتها. رجا أن تكون (لاريسا) هي التي تقف تنتظر. (لاريسا)؛ تلك المرأة المسنة التي كان يُحممها. ذكر عينيها المتلألئتين، وصوتها الرقيق الناعم، وضحكتها الخافتة الجميلة. أخبرته (فيونا) هذه الأيام أن (لاريسا) قد سرّحت تسريحًا حافلًا رائعًا.

ولكن عهده بالمسنين أن المجتمع لا يعطيهم أطفالًا يربونهم. ستكون حياة (لاريسا) في (أرض المجهول) حياة هادئة ساكنة تناسب المسنين؛ لن تفتح ذراعيها ترحب بمسؤولية حضانة طفل يحتاج إلى إطعام ورعاية، وقد يبكي في الليل فيزعج سكونها ويؤرق مضجعها.

أتته فكرة فجأة فقال: "أمي؟ أبي؟ ألا تضعان سرير (جابرييل) في غرفتي الليلة؟ أعرف كيف أطعمه وأسكنُه إن احتاج، لعل ذلك يريحكما في نومكما".

نظر إليه (أبوه) متشككًا وقال: "كيف وأنت تنام نومًا عميقًا يا (جوناس)؟ هبْ أن بكاءه لم يوقظْك؟".

كانت (ليلي) هي التي أجابته فقالت: "إن لم يستيقظ (جوناس) فسيظل يعلو صراخه حتى يوقظنا جميعًا".

ضحك أبوها وقال: "صدقتِ يا ليلي بيلي. لك ذلك إذًا يا (جوناس)، ولكن الليلة فقط. سأضع حمله عن عاتقي وندع أمك تهنأ بنومها".

نام (جابرييل) نومًا عميقًا أول الليل. وظل (جوناس) مستيقظًا في سريره يتكئ على مرفقه ويشرئب بين الفينة والفينة ليتفقد سريره الصغير.

كان الطفلُ الجديد مضطجعًا على بطنه وذراعاه ممدودتان إلى جانب رأسه وعيناه مغمضتان وأنفاسه منضبطة. فلمّا رآه (جوناس) كذلك أخذ النوم بمعاقد جفنيه حتى غلبه.

ثم أيقظته أصوات (جيب) المتململة المشتكية بعدما أوشك الليل على الانتصاف. كان الطفل يتقلّب تحت غطائه ويلوح بذراعيه تلويحًا شديدًا ويبكي، فنهض (جوناس) قائمًا ومضى إليه ومدّ يده يربّت بلطف على ظهره. في بعض الأحايين كان هذا يكفيه ليعود إلى نومه، ولكنَّ الطفل ظل يتلوّى تحت يده و يبكي.

وبينما هو يربّت على ظهره بدأ يذكر تلك النزهة البحرية الرائعة التي منحها إياه (المانح) منذ عهد قريب، كانت نزهة في يوم مشرق عليل على بحيرة فيروزيّة اللون بديعة أخّاذة ومن فوقه يِموجُ الشراع الأبيض البهيج كلما تمايل مع اتجاه الرياح السريعة.

لم يكن على وعي أنه يمنح الذكرى، ولكن فجأة أحسها بدأت تُظلم شيئًا فشيئًا متسللة من يده إلى نفس الطفل. هدأ (جابرييل). فلما رأى (جوناس) ما رأى ذُهل وشخص بصره، فسحب ما فضل من الذكرى، ثم نزع يده عن ظهره الصغير، ووقف صامتًا بجانب سريره الصغير.

استدعى لنفسه ذكرى النزهة البحرية مرة أخرى، كانت لا تزال موجودة، ولكن على صورة غير الصورة، فقد بهتت زرقة السماء، وبطأت حركة المركب اللطيفة، وزاد كدر مياه البحيرة وظلمتها.

استبقاها لحظة يسيرة يهدّئ الاضطراب الذي اعتراه، ثم تركها، وعاد إلى سريره.

ولما اقترب الفجر استيقظ الطفل، وأخذ يصرخ عاليًا، فقصد إليه (جوناس) وثبّت هذه المرة يده على ظهره عامدًا، ومنحه ما تبقى من ذلك اليوم الهادئ على البحيرة، فنام (جابرييل).

ولكن ظل (جوناس) مستيقظًا يفكر. لم يعد لديه من هذه الذكرى إلا شيء قليل، وأحس بدلًا منها فراغًا. كان يعلم أن في وسعه طلب نزهة أخرى من (المانح)، إن أراد، فلعله المرة القادمة يسأله نزهة في المحيط، فقد عرف (جوناس) ما المحيط بعدما تلقّى ذكرى عنه، وعرف كذلك أن هناك مراكبَ شراعية تبحر فيه، لعله يراها في ذكريات لاحقة.

ومع ذلك تساءل (جوناس) هل عليَّ أن أصارح الـ (مانح) بما منحتُه؟ فأنا لست مؤهلًا بعد لأكون (مانحًا) ولا حتى (جابرييل) اختير (متلقيًا).

أخافته هذه القوة التي بين يديه فقرر ألّا يصارحه.

١٥

دخل (جوناس) غرفة (البناء الملحق) فأدرك أنه مصروفٌ يومَه هذا؛ فقد كان (المانح) على كرسيه مُخمِّرًا وجهه بيديه جامدًا جمود الصنم في هيكله.

قال (جوناس) بنبرة سريعة: "سأعود غدًا يا سيّدي"، ثم تردد وقال: "إلا إن كان هناك شيء أستطيع فعله لأساعدك".

نظر (المانح) إليه متقبض الوجه أحمر العينين كأن بلايا الدهر وأرزاءه جميعها قد تجمعت واتخذت لها مكانًا في جبينه وبين حاجبيه. ناداه يلهث: "أرجوك، تعال خذ عني بعض الألم".

فابتدره (جوناس) وأعانه على الذهاب إلى كرسيه القريب من السرير ثم نزع بسرعة سترته واستلقى على بطنه ناكسًا مُستسلمًا، وقال يرشده: "ضع يديك على ظهري"، كان يعلم أن (المانح) قد يحتاج إلى تذكير وهو في هذه الحال.

فجاءته يداه وجاءه بمجيئهما الألم. حشد (جوناس) قوى نفسه وتجرع كأس الشجاعة واقتحم الذكرى التي أوردت (المانح) معين الأحزان والآلام، فإذا هو في مكان مضطرب يحيّر العيون، فيه ضوضاء تُزعج الآذان، وله روائح قذرة تزكم الأنوف. كان واقفًا غدوةً ونور الصباح مشرق وضّاح في أرض واسعة بدت كأنها حقل زراعي، يعلو أديمها دخانٌ كثيف أصفر وآخر بني، يكاد لا يرى منهما الرائي شيئًا.

وحواليه في كل مكان رجال طريحو الأرض يملؤون الجوَّ آهاتٍ تستنزل الدموع وتذيب الأكباد. وإذا فرس لجامه مقطوع يتدلى، تتقد عيناه شررًا، يعدو نافرًا مسعورًا، يدوس بأقدامه أكوامًا من الرجال بعضها فوق بعض ولا يلوي على شيء، ويرمي برأسه إلى الخلف يصهل مذعورًا، ثُمَّ عثر وخرَّ في مكانه خامدًا بلا حراك.

سمع (جوناس) قريبًا منه همسًا ظمئًا أجش ينادي قائلًا: "ماء".

فأدار رأسه ينظر إلى حيث جاءه الصوت فرأى صبيًّا لا يبدو أنه يكبره كثيرًا قد بلغ به الشقاء والبلاء مبلغهما، كان مفترشًا الأرض باسطًا ذراعيه ورجليه يلطخ الوحل وجهه وشعره الأشقر المتشابك، ويلمع الدمُ على بزته النظامية رمادية اللون. أعظم (جوناس) مُصابه وأكبره.

كانت ألوان المجزرة فاقعة، فقد غشي القماش الخشن المغبرَّ بللٌ قرمزي، وانتشر في شعر الصبي الأصفر المتشابك هشيمُ كلأ ذي لون أخضر شديد الخضرة.

شخص إليه الصبي ببصره وقال يتوسل: "ماء"، وحين أتمَّ الكلمة اندفع الدم من فمه وسال حتى بلَّل الثوب الخشن الذي على صدره وكمه.

كانت إحدى ذراعي (جوناس) خاملة خدرة قد عمل فيها الألم عمله، فاطّلع ينظر إليها من خلال كمه المقطوع فإذا هو بشيء كأنه لحم ممزق متفسخ وعظم مهشم متكسر. فلما رأى ما رأى جرّب ذراعه الأخرى فأحسها تتحرك فمدها ببطء إلى جنبه حتى بلغ بها القارورة المعدنية، ثم نزع غطاءها وهو يوقف حركة يده اليسيرة بين اللحظة

واللحظة ينتظر أن تهدأ ثورة ألمه المستعر. ولمّا انفتحت القارورة مد ذراعه شيئًا فشيئًا فوق الأرض التي يغمرها الدم ووضعها بعد لأي على شفتي الصبي يسقيه، فتقاطر منها الماء إلى فمه المتوسل ونزل على ذقنه المتسخ.

تنهد الصبي وارتمت رأسه إلى الخلف وهوى فكه السفلي واختفى بريق الحياة في وجهه، فغشت عينيه سحابة سوداء كئيبة ولم تلحظ له بعد حركة كأنما أصبح جمادًا من الجمادات.

ولكن استمرت الضوضاء من حوله، ظلت تقرع مسامعه استغاثات المصابين وتنفذ إلى قلبه، استغاثات بعضها يطلب الماء أو الأم أو القتل. والخيل ساقطة على الأرض تصرخ صرخات هائلة وترفع رؤوسها وترفس بحوافرها نحو السماء.

من بعيد سمع دويَّ المدافع تقذف صواريخها قذفًا فثقلت عليه وطأة الألم. لبث في هذا المستنقع المُنتن المرعب ساعات، وخرقت أذنيه أصوات موت الرجال والخيول حتى ود لو وُلد أصمَّ لا يسمع، بعد أن خبر ما تعنيه كلمة (حرب).

أزالت هذه الذكرى فؤاده من مكانه وأحدثت في نفسه تأثيرًا عظيمًا، وما زالت به حتى إذا عجز عن الاحتمال وأراد احتضان الموت، ثم فتح عينيه، فإذا هو على السرير مرة أخرى شاخصًا شاحبًا كأنما قد غادرت روحه جسده.

أدار (المانح) وجهه لا يطيق رؤية ما صنعت يداه في (جوناس)، ثم قال ممسكًا بين أهداب عينيه دمعة مترقرقة: "سامحني".

١٦

لم يرد (جوناس) العودة. لم يرد الذكريات، ولا الشرف، ولا الحكمة، ولا الألم. أراد أن يسترد أيام طفولته البريئة، أيام خدشه ركبتيه ولعبه الكرة. ما كان أجمل تلك الأيام! وما كان أسعد ساعاتها! وما كان أحلى مذاق العيش فيها! جلس في مسكنه وحده وأطل من النافذة، فرأى صبيانًا يلعبون ههنا وههنا، ومواطنين على دراجاتهم عائدين إلى مساكنهم بعد يوم عمل هادئ غير حافل. رأى حيوات متواضعة خالية من كل ألم؛ ذلك أنه هو الذي اختير ليحمل عنهم أعباءهم كما كان حال الذين من قبله.

إلا أنه اضطر إلى العودة إلى غرفة (البناء الملحق)؛ فخيار الإحجام ما كان بيديه.

كان (المانح) لطيفًا معه لعدة أيام بعد ذكرى الحرب المؤلمة المفجعة التي تتفتت لهولها الصخور وتذوب القلوب.

ذكره (المانح) قائلًا: "هناك الكثير من الذكريات الجميلة"، وقد صدق في مقالته، فحتى الآن لبس (جوناس) أثوابًا لا تحصى من السعادة لم يعهدها قط من قبل.

فقد رأى حفلة عيد ميلاد خصَّوا فيها صبيًا واحدًا، لا كما يحتفلون في مجتمعه بمجموعة من الصبيان متساوين في السن. من هذه الذكرى عرف فرحة أن تكون متفردًا ومتميّزًا وفريدًا وفخورًا. وزار متاحف

ورأى لوحات حافلة بكل الألوان التي يستطيع الآن معرفتها وتسميتها. وركب فرسًا بنيًا لامعًا في ذكرى تملأ النفس بهجة وحبورًا وسار به في حقلٍ تفوح منه رائحة العشب، ثم ترجّل لدى جدول صغير وشرب هو والفرس ماءً باردًا عذبًا. من هذه الذكرى عرف الكثير عن الحيوانات؛ وعرف كذلك الروابط التي تربط بين الحيوان والإنسان حين تنحى الفرسُ عن الجدول وغمزه في كتفه يلاطفه.

ثم سار بين أشجار الغابات، وجلس حول نار مخيّم يستدفئ. وبعد أن خَبَرَ من ذكرياته ألم الفقد والوحدة، هاهو الآن يختبر العزلة ولذتها.

سأل (جوناس) المانح قائلا: "أيها المفضلة عندك؟ ليس عليك أن تمنحنيي إياها الآن، ولكن حدثني عنها كي أتحمس لها، فأنا مضطر إلى تلقيها قبل أن ينقضي عملك معي".

تبسم (المانح) وقال: "اضطجع إذن. يسرني أن أمنحك إياها".

وما إن بدأت حتى أحس (جوناس) لذتها. كان الأمر في بعض المرات يأخذ منه وقتًا طويلًا حتى يندمج ويعرف مكانه. ولكن هذه المرة سرعان ما اندمج وأحس السعادة التي تغمر هذه الذكرى تجري في نفسه جريًا.

كان في غرفة تغص بالناس، قد أدفأ جوها نارٌ تتوهج من موقد قريب. استطاع أن يرى من خلال النافذة أنهم في الليل وأن السماء تمطر ثلجًا. وتلألأت أنوار ملونة: حمراء وخضراء وصفراء من شجرة عَجِبَ أنها داخل الغرفة. وعلى الطاولة شموع مضيئة تقف في حاملٍ مُذهَّبٍ ترسل وَهَجًا رقيقًا خفّاقًا. وبلغت أنفه رائحة طيبة لأشياء تطبخ، وسمع ضحكًا خافتًا لطيفًا، ورأى كلبًا ذهبيًا جميلًا نائمًا على الأرض.

نظر إلى الأرض فإذا صناديق ملفوفة في ورق ذي ألوان فاقعة مربوطة بشرائط لامعة. شرع صبي صغير يحمل صندوقا صندوقًا ويمرره على الحاضرين: مِنْ صبيان آخرين، وراشدين يظهر أنهم آباء هؤلاء الصبيان، وزوجين هادئين أكبر سنًا، رجل وامرأة يجلسان معًا على أريكة متبسّمين.

وبينما (جوناس) جالس يراقب بدأ الناس تباعًا يحلون الشرائط ويفضون الورق الملون ويفتحون الصناديق فيخرجون منها مختلف الألعاب والملابس والكتب. عمت المكان صرخات سرور وبهجة وأخذوا يحتضنون بعضهم بعضًا.

مضى الصبي الصغير قاصدًا المرأة المسنة وجلس على حجرها فأخذت تهزهزه وتحك خدها بخده.

فتح (جوناس) عينيه يغمره الرضى، مستمتعًا بالدفء والسكينة اللذين ملآ هذه الذكرى. قد جمعت له الذكرى كل شيء، كل ما حبب إلى نفسه.

"ماذا أحسست؟".

"دفئًا، وسعادة، و... عائلة. كان ثمة احتفال ما، يوم عطلة ما. وأحسست شيئًا آخر، وهو... لا أستطيع أن أجد الكلمة المناسبة".

"اطمئن، ستأتيك".

"من المُسنّان؟ ولمَ كانا هناك؟" رابه رؤيتهما في هذا المكان وغلبت عليه الحيرة، فمسنّو المجتمع لا يغادرون مطلقًا المكان المخصص لهم، ألا وهو دار المسنين، حيث يُعتنى بهم وترعى شؤونهم.

"كانوا يسمون (الأجداد)".

"الأجداد؟".

"الأجداد. كان تعني آباء الآباء، قديمًا".

"قديمًا قبل الذين قبلنا والذين قبلهم والذين قبلهم؟" قالها وأخذ يضحك. "إذن، قد يكون هناك آباء آباء آباء الآباء؟".

ضحك (المانح) لضحكه وقال: "صحيح. إن الأمر أشبه قليلًا بنظرك إلى نفسك وأنت تنظر في المرآة إلى نفسك وأنت تنظر في المرآة".

عقد (جوناس) حاجبيه وقال: "ولكن أبواي لا بد كان لهم آباء! كيف لم يطرق هذا الأمر ذهني من قبل. تُرى من هم آباء آبائي؟ وأين هم الآن؟".

"تستطيع أن تبحث في قاعة السجلات العامة. هناك تجد الأسماء. أرأيتَ يا بنيَّ إنْ قدمت طلبًا للحصول على أبناء، من سيكون آباء آبائهم؟ أو أجدادهم؟".

"أبي وأمي دون شك".

"وأين سيكونان؟".

فكر (جوناس) ثم قال بطيئًا: "حين أُتم تدريبي وأصبح راشدًا تام الرشد سيكون لي مسكني، وكذلك (ليلي) حين تصبح راشدة بعد بضع سنين، وربما يكون لي زوجة وأولادًا، إن قدمت طلبًا عليهم، أما أبي وأمي...".

"صحيح، صحيح".

"فما داما يعملان ويساهمان في المجتمع فسوف يذهبان ليعيشا مع سائر الراشدين غير ذوي النسل. ولن يكونا جزءًا من حياتي بعدئذ".

وقال مستمرًا في حديثه: "عندما يحين الوقت يذهبان إلى دار المسنين، ويُعتنى بهم ويُجلُّ شأنهم، وحين تسريحهم يُقام لهم احتفال".

"الذي لن تحضره". قالها (المانح) يلفت انتباهه.

"لا، لا شك لن أحضره، لأني حتى لن أعلم عنه شيئًا. حينئذ سأكون مشغولًا بحياتي. وليلي كذلك. و لن يعرف أبناؤنا أيضًا من هم آباء آبائهم، هذا إن كان لنا أبناء".

ثم سأله (جوناس): "ألا تراها طريقة ناجحة؟ أقصد الطريقة التي ندير بها المجتمع؟ لم أفطن إلى أن هناك طرائق أخرى حتى تلقيت هذه الذكرى".

قال (المانح) يوافقه: "بلى، ناجحة".

صمت (جوناس) قليلًا ثم قال: "ومع ذلك استمتعت بهذه الذكرى. الآن عرفت لما هي المفضلة عندك. حاولت ولكني لم أهتدِ إلى الكلمة التي تمثل ذلك الشعور كله، ذلك الشعور القوي الذي ملأ أرجاء الغرفة".

قال (المانح): "هو الحب".

أعادها (جوناس) قائلًا: "الحب". كانت الكلمة وما تشير إليه جديدين عليه.

ظلا صامتين برهة حتى قال (جوناس): "أيها (المانح)؟".

"نعم؟".

حار الكلام بين شفيته حتى قال: "أشعر أني سخيف جدًّا وأنا أقول هذا. سخيف جدًّا جدًّا".

"ولمَ السخف؟ لا شيء يدعو إلى السخف ههنا. ثق في الذكريات وما تبث فيك من مشاعر".

"أعلم أن الذكرى لم تعد لديك لأنك منحتني إياها، فلعلك إذن لن تفهم...".

"اطمئن. سأفهم. فلا يزال لدي لمحة من هذه الذكرى؛ ثم إن لدي ذكريات أخرى لعائلات مختلفة وعطلات، ذكريات سعادة. وحب".

فطارحه (جوناس) ما أضمر في نفسه قائلًا: "كنت أفكر... لا أكتمك، فأنا أرى أنها لم تكن طريقة عيش مناسبة، والمسنون هناك يشاركونهم المكان نفسه، فربما لا يتعهدهم متعهد بلطفه وعنايته، كما هو شأنهم الآن في دار المسنين. أن لنا طريقة أكثر نظامًا في فعل الأشياء. على أي حال، كنتُ أفكر، أقصد أشعر، أنه كان شيئًا لطيفًا. أتمنى لو كان المسنون يعيشون معنا لا في دار المسنين، وأن تكون أنت جدي. العائلة التي كانت في الذكرى بدت أكثر... أكثر..." عثر لسانه ولم يستطع أن يجد الكلمة التي أراد.

قال المانح يقترح: "أكثر كمالًا".

أومأ (جوناس) برأسه موافقًا وقال: "أعجبني شعور الحب". قالها يعترف وألقى نظرة على المذياع المعلق على الحائط قلقًا مضطربًا يريد أن يطمئن أن لا أحد يسمعهما، ثم قال يعجل بكلامه: "وإني لأعرف أن ما تمنيته لن يكون له حظ من النجاح، وأنه أحرى بالأمر أن يكون منظمًا كما هو شأننا الآن. أرى أنها كانت طريقة عيش خطيرة".

"خطيرة؟ لمَ؟".

تلعثم (جوناس). لم يكن يدري ما الذي قصده. أحس أن في الأمر مخاطرة ولكن لم يكن يدري كيف. قال: "كانت هناك نار في تلك الغرفة. وكانت هناك شموع على الطاولة. أعلم الآن لِمَا حظر القانون تلك الأشياء".

ثم تابع بنبرة بطيئة كأنما يحادث نفسه: "إلا أني لذَّ لي الضوء الذي انبعث منها. والحرارة كذلك".

"أمي؟ أبي؟" ناداهما (جوناس) بعد وجبة المساء وقال: "أريد أن أسألكما سؤالًا".

"ما الأمر يا (جوناس)؟".

اتقد وجهه حياءً وخجلًا، ولكنّه حمل نفسه على قول الكلمات، فقد تدرب عليها بينه وبين نفسه طوال طريق عودته من غرفة الملحق.

"هل تحبانني؟".

وما قالها حتى هبط عليهما صمت عجيب استمر برهة من الزمن، قطعه ضحك أبوه وهو يقول: "ويحك يا (جوناس)، أتأتي منك أنت دون سائر الناس. كن دقيقًا في لغتك رجاءً!".

"ماذا تقصد؟" سأله (جوناس)، فقال في نفسه: علامَ الضحك؟ ما كان هذا الذي توقعته.

قالت أمه تبيّن له: "أبوك يقصد أنك استعملت كلمة عامة جدًّا، قد بلغت من فراغ معناها أنْ كادت تندثر".

عَجِبَ جوناس وشخص إليهما ببصره يقول في نفسه: فراغ معناها؟ لم أشعر في حياتي قط بشيء يفوق الذكرى التي مُنحتها معنى، فكيف تقول أمي ذلك؟

"ثم إن مجتمعنا لن تستقيم أموره إن لم يستعمل الناس لغة دقيقة. أحرى بك أن تقول: (هل تستمتعان بي؟) والإجابة (نعم)".

قال أبوه يقترح: "أو تقول: (هل تفتخران بإنجازاتي؟) ونجيبك دون تردد: (نعم)".

سألته أمه: "فهمت الآن لما لا يجوز استعمال كلمة كـ (يحب)؟".

أومأ (جوناس) برأسه وأجابهما متثاقلًا: "نعم، شكرًا لكما، فهمت ما تقصدان". كانت هذه أول مرة يكذبهما.

همس (جوناس) هذه الليلة إلى الطفل الجديد يقول: "جابرييل؟" كان سريره الصغير في غرفته مرة أخرى. وبعدما نام (جيب) أربع ليال في غرفته نومًا عميقًا، قضى أبواه أنها تجربة ناجحة وقالا: "نِعمَ الرجل يا (جوناس)، نعم الرجل!". كان (جابرييل) يكبر بسرعة، فقد بدأ يذرع الغرفة حبوًا جيئةوذهابًا ويدفع نفسه إلى الوقوف وهو يضحك. قال أبوه فرحًا مُستبشرًا إنه ما دام ينام عميقًا الآن فقد أصبح جديرًا أن يُسمّى رسميًا ويُسلّم إلى وحدته الأسرية في ديسمبر المقبل بعد شهرين.

ولكن حين عاد إلى المركز كفَّ عن النوم مرة أخرى، وظل يبكي في الليل. فأعيد إلى غرفة (جوناس). قرروا أن يمهلوه بعض الوقت. وما دام يرتاح في غرفة (جوناس) فسيتركونه ينام عنده عدد ساعات أكثر قليلًا حتى تعتاد نفسه النوم عميقًا. كان الحاضنون متفائلين خيرًا بمستقبل (جابرييل).

لم تأت (جوناس) إجابة لندائه، فقد كان (جابرييل) غارقًا في نومه.

استكمل يقول: "عسى أن تتغير الأشياء يومًا ما يا (جيب). عسى أن يختلف حالها. ولكن لا أدري كيف، لا بد هناك طريقة تختلف بها الأشياء. عسى أن تكون هناك ألوان. وأجداد"، قالها وهو ينظر في الإضاءة الخافتة نحو سقف غرفته. "وعسى أن يمتلك الناس جميعًا الذكرياتِ".

ثم همس قائلًا وهو يلتفت إلى السرير الصغير: "أنت تعرف الذكريات".

كان (جابرييل) يتنفس تنفسًا عميقًا منتظمًا. لذ لـ(جوناس) وجوده معه في غرفته، ولكن سرّه الذي يخفيه أهمّه وبثّ فيه شعورًا بالذنب؛ فقد منح (جابرييل) ذكريات كل ليلة، منحه ذكريات نزهات بحرية على قارب، ونزهات طعام تحت أشعة الشمس الجميلة، وذكريات مطر لطيف يتساقط على زجاج النوافذ، وذكريات أناس يرقصون حفاة فوق عشب أخضر.

"(جيب)؟".

تحرك الطفل الجديد قليلًا أثناء نومه. نظر إليه (جوناس) وهمس قائلًا: "عسى أن يكون هناك حب".

انحدر برقع الليل عن وجه الصباح ولم يأخذ (جوناس)، لأول مرة، حبته الدوائية. شيء ما في نفسه، شيء ما استنبتته الذكريات، أوحى له أن يرمي الحبة بعيدًا.

١٧

نعلن اليوم عطلة مفاجئة. التفت (جوناس) وأبواه وأخته في دهشة إلى المذياع الذي أتى منه هذا البيان. كانت هذه العطل المفاجئة نادرة، يستطير بها المجتمع كله فرحًا وابتهاجًا. يُعفى فيها الراشدون عن العمل، والصبيان عن المدرسة والتدريب وساعات التطوع. حينئذ يكفيهم العمال مؤونة المهام الضرورية من حضانة وتوصيل للوجبات ورعاية للمسنين، على أن يكون لهم لاحقًا يوم عطلة بديل.

صاح (جوناس) قائلًا: "يا للسعادة، يا للفرح!" ووضع واجباته جانبًا، فقد كان موشكًا على الذهاب إلى المدرسة. لم تعد المدرسة تحمل عنده نفس الأهمية، وقريبًا تنقضي دراسته الرسمية بها. وعلى أنَّ أبناء الاثنتي عشرة قد بدؤوا تدريبات الراشدين ظلت هناك قوائم من القوانين لا تنتهي عليهم استظهارها، وتكنولوجيا حديثة عليهم تعلمها.

تمنى لأبويه وأخته و(جيب) يومًا سعيدًا وركب دراجته وانطلق بها يبحث عن (آشر).

مرَّت أربعة أسابيع منذ عزوفه عن تناول الحبوب. عاودته (الإثارات) وأصابه شيء من التحرج والخجل من تلك الأحلام المثيرة التي عرضت له أثناء نومه. ولكنه علم أنه لا يستطيع العودة إلى العالم الخالي من المشاعر الذي عاش فيه معظم عمره.

وامتدت مشاعره المتعاظمة الجديدة إلى عالم أرحب من نومه. ومع علمه أن إخفاقه في تناول الحبوب لعب دورًا في اتقاد هذه المشاعر واحتدامها، أحسَّ أن الذكريات كان لها دور كذلك. والآن انكشف الحجاب وتجلت له كل الألوان، بل قدر على استبقائها كذلك: فالأشجار والأعشاب والشجيرات ظلت خضراء في عينيه، وخدّا (جابرييل) كذلك ظلا على لونهما الوردي حتى وهو نائم، والتفاح كان دائمًا أحمر.

أطلعته الذكريات على محيطاتٍ وبحيرات جبلية وأسمعته خرير الجداول في أعماق الغابات؛ والآن أصبح يرى النهر الواسع الذي على جانب الطريق بصورة غير الصورة؛ فقد رأى كل الأضواء والألوان والتاريخ التي اشتمل عليه وحمله معه في مائه الساري؛ وعرف أن هناك (أرض مجهول) قد أتى منها، وأخرى ذاهب إليها.

كان سعيدًا في هذه العطلة المفاجئة، كما هو دأبه في سائر العطلات؛ ولكن كان سعده هذه المرة أكبر. وبينما كان يفكر في دقة استعمال اللغة، كعادته، أدرك أن المشاعر التي تخامره أصبح لها عمق جديد. لم تكن قط هذه المشاعر كتلك التي يجلس المواطنون في مساكنهم ليلًا يحللونها تحليلًا شفهيًا دقيقًا يكاد لا ينتهي.

"شعرت بالغضب لأن أحد الصبيان خرق قوانين الملعب"، قالتها أخته مرة وكوّرت يدها الصغيرة تعبيرًا عن غضبها. ظلت أسرتها تناقشها الأسباب التي قد تحمل المرء على خرق القوانين، وحاجتها إلى إعذار الآخر والصبر عليه حتى هدأ روعها وذهب عنها غضبها.

ولكن (جوناس) أدرك الآن أن شعورها إذ ذاك لم يكن غضبًا، بل كان تبرمًا وغيظًا سطحيين. كان موقنًا من ذلك لأنه خَبَرَ ما هو

(الغضب). وبعدما ذاق في ذكرياته ظلمًا وقسوة وغلى الغضبُ في نفسه غليان الماء في مرجله أدرك استحالة نقاشه مع أسرته نقاشًا هادئًا.

"شعرت بالحزن اليوم"، قالتها أمه مرة وأخذوا يواسونها. ولكن (جوناس) الآن ذاق حزنًا حقيقيًّا. لقد سالت نفسه لوعة وأسى، فعلم أنه ليس هناك مسكن سريع يُسكن هذه المشاعر المتقدة.

كانت هذه المشاعر أعمق لا تحكى، بل تحس.

كان يشعر اليوم بالسعادة.

"آشر!" قالها بعدما لمح دراجة صديق مائلة إلى شجرة عند حافة الملعب، وإلى جانبها دراجات أخرى ملقاة على الأرض. كان لهم أن يتجاهلوا بعض قوانين النظام في أيام العطل.

كبح مكبح دراجته ورماها بجانب الأخريات وصاح ينادي وهو يتلفت حواليه: "(آشر)!" بدا الملعب خاليًا لا تسمع فيه حركة. "أين أنت؟".

"بـــشـــو!" كان هذا صوت صبي أتى من وراء شجيرة قريبة. ثم استمر الصوت: "بـو! بـو! بـو!".

خرجت أنثى من أبناء الإحدى عشرة اسمها (تانيا) من مكمنها ثم قبضت على بطنها قبضًا دراميًا وجعلت تترنح ترنحًا ملتويًا وهي تتأوه ثم صاحت تقول: "لقد أصبتني"، وسقطت في مكانها تعلو وجهها بسمة عريضة.

"بلام!".

عرف (جوناس) وهو واقف على جانب الملعب صوت صديقه (آشر). فنظر فرأى صديقه يصوب سلاحًا متخيلًا ويعدو منتقلًا من شجرة إلى أخرى يقول: "بلام! تنحّى يا (جوناس) أنت في مرمى النيران! احذر!".

تنحى (جوناس) حتى إذا وقف وراء دراجة (آشر) جثا على ركبتيه ليبتعد عن الأنظار. كانت لعبة اعتاد لعبها مع بقية الصبيان، لعبة الأخيار واللئام، كان لهوًا مسالمًا يستنزف طاقاتهم المختزنة ولا ينته إلا حين كانوا يستلقون على الأرض في أوضاع غريبة عجيبة.

لم يكن يعرف من قبل أنها لعبة (حرب).

"هجوم!" جاء الصراخ من وراء المخزن الصغير حيث تحفظ معدات اللعب. اندفع ثلاثة صبيان إلى الأمام يحملون أسلحتهم المتخيلة في وضع الاستعداد.

جاء صراخ من الناحية الأخرى من الملعب يقول: "هجوم مضاد!" نهضت مجموعة صبيان من مخابئهم يعدون متخذين وضع الانحناء ويطلقون النار في المكان، لمح (جوناس) (فيونا) معهم. توقف بعضهم وأمسكوا بأكتافهم وصدورهم بحركات مبالغة .يتظاهرون أن النار قد أصابتهم. ثم سقطوا على الأرض يحاولون أن يكتموا قهقهاتهم.

اضطرمت عواطف (جوناس) وهاج عليه صدره كأنما شبّت فيه النيران فوجد قدميه تجرانه إلى الحقل جرًا.

صاح (آشر) من وراء الشجرة: "قد أُصِبتَ يا (جوناس)! بو! وها قد أصِبتَ مجددا!".

وقف (جوناس) وحده في منتصف الحقل. رفع بضعة صبيان رؤوسهم ونظروا إليه في قلق. تباطأت الجيوش المغيرة ونهضوا من انحنائهم قائمين وترقبوا ما الذي كان يفعله.

تراءى لـ (جوناس) مرة أخرى وجه الصبي الذي كان مستلقيًا في حقل يلفظ أنفاسه الأخيرة ويسأله قطرة ماء. وقف هذا الطيف من الخيال في حلقه وقوف الغصة وضّيق نفسه كأن صخرة عظيمة قد جثمت على صدره جثومًا لا يستطيع له دفعًا، وأحس الفضاء يدور به وكأنما قد بدلت الأرض غير الأرض والسماوات.

رفع أحد الصبيان بندقيته المتخيلة وحاول تدميره بضوضاء نارية قائلا: "بـــشـــــو!" وقفوا في أماكنهم وقوفًا غريبًا صامتين لا يُسمع لهم همسٌ ولا نبسٌ، إلا صوت أنفاس (جوناس) المرتعشة. كان واقفًا يحاول أن يحبس نفسه عن البكاء.

تبادل الصبيان النظرات في قلق واضطراب ثم تولّوا عنه. سمع أصوات إقامتهم لدراجاتهم ثم ركوبهم إياها وقيادتها على الطريق.

لم يبق معه إلا (آشر) و(فيونا).

قالت: "ما لك يا (جوناس)؟ إنما كانت لعبة".

قال (آشر) منزعجًا مُربدَّ الوجه: "مالك، قد أفسدت علينا اللعبة".

قال يرجوهما: "لا تلعباها مرة أخرى".

"أنا الذي يتدرب ليصبح مدير قسم الترفيه"، قالها (آشر) يبيّن له وقد أخذه الغضب. "ما لك وللألعاب، ليست مجال خصوصيتك".

"تخصصك"، صححها له (جوناس).

"أيًّا كان. ليس لك أن تفرض علينا ما نلعب، حتى إن كنت ستصير المتلقي الجديد". قالها (آشر) وألقى عليه نظرة استنكار ملتهبة. ثم تمتم قائلًا: "ومعذرة أني لم أنزلك المنزلة التي تستحقها".

"آشر"، قالها (جوناس). حاول أن يتكلم بنبرة حذرة يشوبها شيء من اللطف كي يُبلغهما ما أراد قوله.

"كيف لك أن تعرف ذلك. حتى أنا لم أعرفه إلا من قريب. صدقني، هذه لعبة مؤلمة قاسية. قديمًا كان هناك...".

"أما زلتَ تُعيدني بهذه المقالة؟ قلت لك معذرة يا (جوناس)".

تنهد (جوناس) تنهيدة المتضجر الذي خاب أمله؛ فآشر لا شك لن يفهمه. "عذرك مقبول يا (آشر)"، قالها مُجهدًا.

"تريد الذهاب معنا في رحلة على طريق النهر يا (جوناس)؟" قالتها وهي تعض على ثغرها مضطربة مترددة.

التفت (جوناس) إليها وردَّ النظر في وجهها طويلًا. كانت صبيّة حلوة حلاوة قد سحرت لبه وملكت قلبه. حدثته نفسه ألا سرورَ في الحياة قد يعدل سرورهَ وهو راكب في رحلة سالمة هنيئة على طريق النهر، يضاحك صديقته اللطيفة ويبادلها الحديث. ولكنه علم أن هذه المتع قد انتزعت منه. هز رأسه نافيًا ثم تولى عنه صديقاه وركبا دراجتيهما ومضيا لسبيلهما وهو ينظر إليهما.

مشى (جوناس) متثاقلًا إلى مقعد بجانب المخزن وتهافت عليه وقد هده الفقد وضعضعه الحرمان؛ فبعدما كان قابضًا قبضًا شديدًا على طفولته وصداقاته وأمانه الخالي من كل هم ومنغص، ها هي جميعًا تتفلت من بين يديه فلا يستطيع إمساكها ويضطر إلى تركها. اعتصره

الحزن من ضحك وصراخ الصبيان وهم يلعبون لعبة الحرب. ولكنه علم أنهم لن يفهموا لمَا تبث هذه اللعبة الحزن في النفوس دون أن يطلعوا على الذكريات، فكيف تستخرج الماء من الصخر أو تستنبت الربيع في القفر! لقد أحب (آشر) و(فيونا) حبًّا جمًّا ولكنهما لن يستيطيعا مبادلته مشاعر الحب دون أن يتفجر في نفوسهما ما تفجر في نفسه. وهو لا يقدر على أن يمنحهما ذلك. طأطأ (جوناس) رأسه وركل الأرض يائسًا وهو يعلم أنه لا يستطيع تغيير شيئًا.

لما عاد إلى المسكن وحضر المساء أخذت (ليلي) تثرثر ثرثتها في مرح، تحكي لهم العطلة الجميلة التي استمتعت بها، جعلت تحكي لهم لعبها مع أصدقائها، وتناولها وجبة منتصف النهار خارج المسكن، واختلاسها -باعترافها- ركوبة قصيرة على دراجة أبيها.

"لا أستطيع الانتظار حتى أحصل على دراجتي الشهر المقبل، فدراجة أبي كبيرة عليَّ جدًّا. حتى إني سقطت عنها". قالتها خالية من كل تعبير. وواصلت تقول: "من حسن الحظ أن (جابرييل) لم يكن راكبًا معي إذ ذاك!".

"من حسن الحظ لا ريب!" وافقتها أمها وهي عابسة من هول الخاطرة.

لوح (جابرييل) بيده بعدما سمعهم يذكرونه. كان قد بدأ المشي منذ أسبوع. أخبرهم أبوهم أن أولى خطوات الأطفال الجدد تكون مثار احتفال عندهم في المركز، وكذلك رخصة في استعمال عصا التأديب. أحضر أبوه معه كل ليلة هذه الأداة الدقيقة عسى أن يظهر من (جابرييل) سوء سلوك. ولكنه كان طفلًا مرحًا سهلًا. قطع الغرفة بخطوات مترنحة وهو يضحك ثم هلل قائلًا: "جاي!" كذلك كان ينادي اسمه.

سُرَّ (جوناس) مما يصنعه (جابرييل). كان يومًا كئيبًا عليه، بعد هكذا بداية مشرقة. ولكنه نفض عنه قلقه وفكر أن يبدأ في تعليم (ليلي) ركوب الدراجة، ذلك لتنطلق بها واثقة متبخترة بعد انتهاء مراسم أبناء التاسعة التي على الأبواب. كان صعبًا عليه تصديق أن السنة قد دارت دورتها وأسلمتهم إلى ديسمبر مرة أخرى.

تبسم وهو يشاهد الطفل الجديد يضع رجلًا بحذر ثم يتبعها الأخرى وهو فرح مغتبط من خطواته التي يخطوها.

"أريد النوم باكرًا الليلة، فغدًا يوم حافل. غدًا يولد التوأمان، والنتائج تظهر أنهما متماثلان".

"واحد بقاؤه مأمول، وآخر إلى (أرض المجهول)". قالتها (ليلي) تغنيها. "واحد بقاؤه مأمول، وآخر إلى (أرض...".

قال (جوناس): "وهل تأخذه حقًّا إلى (أرض المجهول) يا أبي؟".

"لا، ليس عليّ إلا أن أختار بينهما. أزِنهما ثم أسلّم أكبرهما وزنًا إلى الحاضن الذي يقف إلى جانبي منتظرًا، ثم آخذ أصغرهما أنظفه وأريحه. ثم أجري مراسم تسريح صغيرة ثم..." أخفض نظره إلى (جابرييل) يتبسم له، فقال بصوته العذب اللطيف الذي اعتاد محادثته به: "ثم ألوح له بيدي توديعًا". ولوح بيده.

قهقه (جابرييل) ضاحكًا ولوح لتلويحه. "ثم يأتيك آخذٌ يأخذُه؟ أقصد من (أرض المجهول)؟".

"صحيح يا جوناس- بوناس".

خجل (جوناس) بعدما دعاه أبوه بهذا الاسم التحببي السخيف.

كانت (ليلي) سارحة، مستغرقة في تفكيرها. قالت: "تخيلوا أن يعطوا أصغرهما اسمًا كـ، كـ (جوناثان) مثلًا؟ وأعطي الآخر الذي ظل هنا اسم (جوناثان)، فيكون هناك طفلان يحملان نفس الاسم يشبه بعضهما بعضًا تمام الشبه، ثم في يوم ما، ربما حين يبلغان السادسة، تذهب إحدى مجموعتي أبناء الست في حافلة لتزور مجتمعًا آخر، فتلاقي في ذلك المجتمع الآخر مجموعة أبناء الست الأخرى، ويكون فيهم (جوناثان) الذي شابه (جوناثان) الآخر تمام الشبه، فيُخلط بينهما ويصطحب كلٌ إلى البيت (جوناثان) غير الـ (جوناثان)، ثم لا ينتبه أبواه، ثم...".

أمسكت لسانها عن الحديث تلتقط أنفاسها.

"ليلي"، قالتها أمها. "عندي فكرة رائعة. ربما يولونك حين تبلغين الثانية عشرة تكليف (القصَّاصَة)! أحسب أن مجتمعنا ظل دون (قصَّاصَة) زمنًا طويلًا. لو كنت مكان اللجنة، لاخترتك حتمًا لهذه الوظيفة!".

تبسمت (ليلي) ضاحكة وقالت: "عندي فكرة أفضل لقصة أخرى... أرأيتم إن كنا كلنا جميعًا توائم ونحن لا نعلم، فيكون هنالك في (أرض المجهول) ليلي أخرى، وجوناس آخر، وآشر آخر، وأب آخر، وأم أخرى، ورئيس كهول أخرى، و...".

قال أبوها ضجرًا وقال: "حسبك يا (ليلي). لقد حان وقت النوم".

١٨

سأله (جوناس) صباح اليوم التالي: "أيها (المانح)، ألا تفكر أبدًا في التسريح؟".

"تقصد تسريحي أنا خاصة، أم أمر التسريح عامة؟".

"كليهما أظن. معذرة... أقصد كان عليّ تحري الدقة. أنا لا أدري ما الذي قصدته".

"اجلس. ليس عليك أن تظل مضطجعًا هكذا ونحن نتكلم".

ففعل (جوناس).

قال (المانح): "أظنه يروادني من حين إلى حين. ولا سيما حين يغرز فيَّ الألم أنيابه ولا أستطيع له دفعًا. وددت لو استطعت يومًا ما طلب تسريح. ولكن ليس مسموحًا لي بذلك قبل أن يقضي (المتلقي) الجديد تدريبه".

"أما أنا..." قالها (جوناس) بنبرة كئيبة. لم يكن متطلعًا إلى نهاية تدريبه حين يصبح رسميًّا (المتلقي) الجديد. أدرك (جوناس) كم هي حياة شاقة موحشة، على ما فيها من شرف.

"فلا أستطيع طلب تسريح أيضًا. كان ذلك مخطوطًا في قوانيني".

ضحك (المانح) ضحكة غليظة وقال: "أعلم ذلك. لقد خطوا تلك القوانين بعد الإخفاق الذي حدث منذ عشر سنين".

لقد سمع (جوناس) مرارًا ذكرهم للإخفاق السابق ولكنه ظل جاهلًا به لا يعلم الذي الوقع. "هل لك أيها (المانح) أن تخبرني بما حدث؟".

هز كتفيه وقال: "كان الأمر يسيرًا؛ اختاروا (متلقيًا) يخلفني كما اختاروك. وكان الاختيار سهلًا يسيرًا. ثم أقيمت المراسم ووقع الاختيار فهلل الحضور كما صنعوا معك، ووقف (المتلقي) الجديد خائفًا متحيّرًا كما كان حالك".

"أخبرني أبواي أنها كانت أنثى".

وافقه (المانح) بإيماءة برأسه.

هنالك فكر (جوناس) في أنثاه المفضلة (فيونا) فارتعد واضطرب. لم يُرد أن تكابد صديقته الرقيقة اللطيفة مكابدته لآلام الذكريات ولواعجها. "حدثني عنها، ما شأنها؟".

استثار ذكرُها كوامن حزنه وآلامه. قال: "كانت فتاة رزينة هادئة. تتقطر فطنة وذكاء، راغبة في التعلم". هز رأسه وتنفس تنفسًا طويلًا. "تعلم يا (جوناس)، لما قدمت علي وعرّفت نفسها إليَّ كي تبدأ تدريبها...".

قاطعه (جوناس) يسأل: "هل لك أن تخبرني باسمها؟ فقد قال لي أبواي أن اسمها قد مُنع الناس من ذكرِه مطلقًا. ولكن ألا يمكنك أن تخبرني به أنا فقط؟".

تردد (المانح) في ذكر اسمها متألمًا، كأن ذكر الاسم علانية سينكأ جروحه ويهيّج عليه عذاباته، لكنه تجلد واستمسك وقال: "كان اسمها روزماري".

"روزماري. يروقني الاسم".

استمر (المانح) في حديثه يقول: "لما جاءتني أول مرة جلست على هذا الكرسي الذي جلست عليه أنت في يومك الأول. كانت شغوفًا، تتقد حماسًا، يسري في نفسها شيء من الخوف. تحادثنا قليلًا، وحاولتُ أن أشرح لها الأمور ما استطعت".

"كما صنعتَ معي".

قال (المانح) بحزن: "الشرح صعب. إن الأمر بمجمله عصيٌّ على الإدراك. ولكني حاولتُ وكانت هي منصتة. ما زلت أذكر بريق عينيها".

ورفع رأسه فُجأة وقال: "تذكر يا (جوناس) تلك الذكرى التي قلت لك هي المفضلة عندي؟ تلك الغرفة ذات العائلة والأجداد، تذكرها؟".

أومأ (جوناس) برأسه. كان يتذكرها ما في ذلك ريب. "كان يغمرها شعور رائق جميل. قلتَ لي حينئذ هو الحب".

"إذن تستطيع الآن أن تدرك كيف كان شعوري نحو (روزماري). لقد أحببتها".

ثم أضاف قائلًا: "وهذا هو شعوري نحوك كذلك".

"وماذا أصابها؟".

تردد وأُلجم لسانُه.

سأله (جوناس) مرة أخرى قائلًا: "ماذا أصابها؟ أرجوك أخبرني".

أغمض (المانح) عينيه وقال: "نَقْلُ الألمِ إليها جَرَحَ قلبي يا (جوناس) جرحًا داميًا. ولكن كانت هذه أمانتي، كان عليّ أن أؤديها، كما علي أن أؤديها إليك".

ساد السكون الغرفة وترقبه (جوناس) ليستكمل كلامه.

قال: "ما هي إلا خمسة أسابيع. منحتها فيها ذكريات سعيدة: أركبتها دوامة الخيل وجئتها بهرة صغيرة تلاعبُها، ونزّهتها نزهة طعام وسط المروج الخضراء. كنت أحيانًا أختار ذكرى معينة لأني أعلم أنها ستستثير ضحكها، وبذلك استبقيت أصوات ضحكها الجميلة في هذه الغرفة التي استبد بها الصمت دائمًا وملأ كل ركن من أركانها... لقد كانت مثلك يا (جوناس). متعطشة تريد أن تعرف كل شيءٍ تأدية لواجبها. لذلك ظلت تطلب مني ذكريات أصعب".

سكت (جوناس) هنية ثم قال: "لا تقل إنك منحتها ذكرى الحرب! ليس بعد خمسة أسابيع فقط!".

هز (المانح) رأسه نافيًا وتنهد وقال: "لا. ولم أمنحها ألمًا بدنيًا. منحتها ألم الوحدة. ومنحتها ألم الفقد. نقلت إليها ذكرى صبي غُصِبَ من أبويه. كانت هذه أول ذكرى. وقفتْ في نهايتها موقف المذهول".

اضطرب (جوناس) وبلع ريقه خوفًا؛ فقد بدأت تتراءى له (روزماري) ويسمع ضحكاتها كأنها حقيقة، وخيّلت إليه مضطجعة على سرير الذكريات ترفع نظرها مأخوذةً مذعورةً.

واصل (المانح) كلامه يقول: "فكففتُ وبدأت أمنحها ذكريات تسري عنها وتبهجها، ولكن دون جدوى، فقد تبدل حالها بعدما ذاقت مرارة الألم، وسرى في نفسها سريانًا رأيت أثره في عينيها".

قال (جوناس) يستشرف: "لم يكن عندها من الشجاعة ما يدفع عنها الألم؟".

لم يبدِ (المانح) جوابًا على سؤاله. قال: "أصرت أن أستكمل التدريب ولا أخفي عنها شيئًا. قالت هذا واجبها الذي عليها قضاؤه. وقد أصابت في مقالتها. لم تطاوعني نفسي منحها ألمًا بدنيًّا. ومع ذلك محنتها ألوانًا من العذاب، منحتها الفقر والجوع والرعب. ما كنت أعلم أن تلك الذكريات قد بلغت منها ما بلغت وأحدثت تأثيرًا عظيمًا، ولكن ما كان عساي أن أفعل يا (جوناس)؟ لقد اضطررت إلى ذلك تأديةً لعملي، وقد اختيرتْ هي لذلك". قالها ونظر إلى (جوناس) نظرة المستعطف المسترحم، فمسح (جوناس) يدَه يواسيه.

"وذات ظهيرة انتهينا من شغلنا بعد جِلسةٍ صعبة جهيدة، حاولت أن أختمها بشيء مفرح مُبهج كما أصنع معك. ولكن ولت أيام الضحك ولم يعد ذلك ينفع. نهضت قائمةً صامتةً جامدةً عاقدة حاجبيها كأنها تقرر في نفسها قرارًا، ثم أقبلت عليَّ ومدت ذراعيها تحتضنني ثم قبّلت خدي". راقبه (جوناس) وهو يمسح خده يستحضر أثر شفتيها عليه منذ عشر سنين.

"غادرت ذلك اليوم هذه الغرفة، ولم تعد إلى مسكنها. أخطرني المذياع أنها قصدت إلى رئيس الكهول تطلب التسريح".

"ولكن ذلك يخالف القوانين! ما كان لمتلقٍ تحت التدريب أن...".

"هذه قوانينك أنت يا (جوناس). لم يكن ذلك في قوانينها. طلبت التسريح فنزلوا على مرادها وكان ذلك آخر عهدي بها".

قال (جوناس) في نفسه: كان هذا هو الإخفاق إذن. عرف الآن لِم استثار أحزان الرجل المسكين. ولكن (جوناس) لم يستفظع ذلك الفعل، ثم إنه لن يقدم عليه أبدًا مهما ثقل عليه تدريبه؛ فـ(المانح) أراد خليفة يخلفه، وها هو ذا قد وقع عليه الاختيار وحُمّل الأمانة.

خطرت له خاطرة فأمسك بها وجعل يجذبها إليه، أما وقد سرحت (روزماري) مبكرًا جدًّا أثناء تدريبها فماذا لو أصابه هو مكروه؟ بعدما حمل ذكريات سنة كاملة حتى الآن.

"أيها (المانح)، أعلم أني ليس لي أن أطلب تسريحًا، ولكن أرأيت إن أصابني مكروه: كحادث مثلًا؟ أرأيت إن سقطتُ في النهر كما سقط (كيليب) الصغير ابن الأربع؟ ذلك ليس معقولًا لأني أجيد السباحة ولكن أرأيت إن كنت لا أستطيعها وسقطت ولم يعثر عليَّ أحد؟ حينئذ لن يكون هناك (متلق) جديد، وتكونَ أنت قد منحتني ذكريات مهمة كثيرة كثيرة، فتذهب الذكريات -حتى إن اختاروا (متلقيًا) آخر- ذهابَ التراب الذي هبت عليه الريح، إلا البقايا التي تبقت لك منها، أليس كذلك؟ أرأيت إن...".

وأخذ في الضحك فجأة، فقال متعجبًا من نفسه: "أتحدثُ اليوم كما تتحدث أختي (ليلي)".

ألقى عليه (المانح) نظرة تحذيرية وقال: "فقط ابتعد عن النهر يا صديقي. قد أفجعهم فقدان (روزماري) بعد خمسة أسابيع. لا أدري ما يكون شانهم إن فقدوك أنت".

"ولمَ أفجعهم؟".

"أظنني ذكرتُ لك ذات يوم"، قال يذكره، "بعد رحيلها رجعت الذكريات إلى الناس. إن فقدتَ يا (جوناس) فلن تُفقدَ بفقدِك الذكرياتُ. فهي أبدية. كانت حصيلة ذكريات (روز) خمسة أسابيع، أكثرها جميل. ولكن كانت بينها تلك الذكريات المهولة التي آلمتها وظلت زمنًا تؤلم قلوب المجتمع كله. كان سيلًا متدفقًا من المشاعر لا

عهد لهم به من قبل! لقد بلغت من الأسف عليها والشعور بالخيبة أني غفلت عن مد يد العون لهم لأنتشلهم من تلك النار الموقدة. ثم استبد بي الغضب".

أطرق (المانح) هنيّة يفكر ثم قال: "إن فقدوك بعد كل هذا التدريب الذي تلقيّته، فستعود إليهم الذكريات حتى تلتصق بهم التصاق اللحم بالعظم وتجري منهم مجرى الدم".

انتشر على وجه (جوناس) الانقباض فقال: "إذن لن يطيقوها".

"ما في ذلك ريب. ولن يعرفوا كيف يتعاملون معها".

"صحيح، فما يسّر لي التعامل معها إلا مساعدتك لي".

ظل (المانح) مستغرقًا في أفكاره حتى قال: "إن وقع المحذور فأحسب أني أستطيع تقديم العون لكل المجتمع كما صنعت معك. هي فكرة مثيرة تحتاج مني إلى تفكير. لعلنا نناقشها مرة أخرى يومًا ما. ولكن ليس هذا أوانها. يسرني أنك سباح ماهر يا (جوناس)، ولكن فضلًا ابتعد عن النهر". قالها وضحك ضحكة قصيرة يشوبه قلق؛ فقد كانت أفكاره شاردة، وبصره من القلق يصرف يمينًا وشمالًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٩

نظر (جوناس) إلى الساعة. كان هناك دائمًا شغلٌ كثير عليهما قضاؤه، حتى إنه نادرًا ما جلسا بعضهما إلى بعض وتحادثا كما كانا يفعلان.

"أستميحُك عذرًا، لقد سببت لك الملل وضيّعت وقتًا كثيرًا بأسئلتي. ولكن ما حملني على السؤال إلا أن أبي سيسرّح اليوم طفلًا جديدًا. لديه طفلان توأمان. عليه أن يستبقي واحدًا ويسرّح الآخر. يصنعون ذلك بقياس الوزن". ثم ألقى نظرة على الساعة وقال: "لعله انتهى الآن. أظن أن التسريح انقضى صباحًا".

اتخذت ملامح (المانح) صبغة جادة وقال: "أتمنى ألا يفعلوا"، قالها بصوت خافت كأنه يحادث نفسه.

"ولكن لا يمكن وجود توأمين! ألا تراه أمرًا محيرًا!" قالها (جوناس) ضاحكًا.

سكت هنيهة ثم أردف: "وددت لو أمكنني مشاهدتهم". لذت له رؤية أبيه وهو يقيم تلك المراسم، وهو ينظف التوأمين ويريحهما. كم كان أبوه رجلًا رقيقًا لطيفًا.

قال المانح: "يمكنك ذلك".

"لا. هم لا يدعون الصبيان يشاهدون مطلقًا. فهو أمر شديد السرية".

"أعلم أنك قرأت الإرشادات قراءة متأنية. ألا تذكر فيها أنَّ لك أن تسأل ما شئت؟".

أومأ (جوناس) برأسه: "نعم، ولكن...".

"حين ننتهي من تدريبك يا (جوناس) ستكون أنت (المتلقي)، حينئذ تمتلك كل الذكريات وتستطيع قراءة الكتب. لقد رخص لك في الاطلاع على أي شيء. هذا جزء من تدريبك. إن أردت مشاهدة تسريح ما فما عليك إلا أن تسأل".

هز (جوناس) كتفيه وقال: "لعلي أفعل إذن. ولكن هذا التسريح فات وقته. أنا موقن أنه انقضى في الصباح".

قال (المانح) يذكره: "كل المراسم السرية مسجلة. تجدها في قاعة السجلات العامة. **هل تريد أن تشاهد تسريح هذا الصباح؟**".

صمت (جوناس) صمت المتردد؛ فقد كان يخشى أن يكره أبوه اطلاعه على شيء له هذه السرية.

"أظن أن عليك مشاهدته"، قالها (المانح) بنبرة حازمة.

"كما ترى. ولكن اشرح لي كيف".

نهض (المانح) من كرسيه قائمًا وقصد إلى المذياع الذي على الحائط ونقره يُشغّله.

وإذا الصوت يخرج قائلًا: "تفضل أيها (المتلقي)، كيف أخدمك؟".

"أريد مشاهدة تسريح التوأم الذي كان في الصباح".

"انتظرني لحظة واحدة رجاءً. شكرًا على إرشادك".

راقب (جوناس) الشاشة التي فوق صف المفاتيح الكهربائية فإذا صفحتها الخالية تخفق عليها خطوط متعرجة؛ ثم ظهرت أرقام، تبعها التاريخ والساعة. وما رأى ما رأى حتى امتلأ دهشة وحبورًا، وعجب أنه لم يكن يدري عنه شيئًا. ثم ظهرت غرفة صغيرة بلا نوافذ، كانت خالية إلا من سرير وخزانة وطاولة عليها بعض المعدات بينها ميزان؛ لقد رأى (جوناس) هذه المعدات من قبل حين كان يقضي ساعاته التطوعية في مركز الحضانة. وكسا الأرضَ سجادٌ باهت اللون.

قال (جوناس) مُعلقًا: "إنما هي غرفة عادية، حسبتهم يقيمونها في المحفل ليحضر الناس كلهم؛ فالمسنون يحضرون مراسم التسريح. ولكني أظن لو كان المسرح طفلًا جديدًا فهم لا...".

"هُـسْ"، قالها (المانح) وعيناه جامدتان على الشاشة.

دخل أبوه الغرفة لابسًا بزة الحاضنين النظامية، يهدهد بين ذراعيه طفلًا صغيرًا ملفوفًا في دثار ناعم. تبعته امرأة تلبس كذلك بزتها النظامية، وتحمل طفلًا ثانيًا ملفوفًا في دثار مماثل.

"هذا أبي". قالها جوناس همسًا كأنه يخشى أن يوقظ الصغيرين إن رفع صوته. "وهذه الحاضنة هي مساعدته. لا تزال تحت التدريب، ولكنها ستنتهي منه قريبًا".

أزال الحاضنان الدثارين ووضعا التوأمين على السريرين، فعرف (جوناس) من انكشاف عورتيهما أنهما ذكران.

راقب أباه وهو يضعهما واحدًا واحدًا على الميزان ويزنهما.

سمع أباه يضحك ويقول: "خفت لوهلة أنهما ربما متوازنان، وحينئذ تكون مشكلة. ولكن هذا"، قالها وناولها واحدًا منهما بعدما

لفه مرة أخرى في دثاره، "يزن ستة باوندات. خذيه فنظفيه وألبسيه ثم توجهي به إلى المركز".

فحملته المرأة وخرجت به من حيث دخلت.

راقب (جوناس) أباه وهو ينحني على الطفل المتململ يقول: "أما أنت فلا تزن إلا خمسة باوندات يا ضئيل!".

"انظر"، قالها (المانح).

قال له (جوناس): "الآن هو ينظفه ويريحه، كما أخبرني".

أمره المانح بنبرة غريبة: "اسكت يا (جوناس) وأمعن النظر".

فأطاعه ومكث ينتظر ما يحدث بعدها. كان أكثر ما شغل باله واستثار فضوله هو جزء المراسم.

التفت أبوه وفتح الخزانة وأخذ منها مِحقنةً وزجاجة صغيرة ثم أدخل بحذر شديد الإبرة في الزجاجة وسحب منها السائل الشفاف.

اهتز (جوناس) إشفاقًا عليه. كان قد نسي أن الأطفال الجدد مكرهون على الحُقنِ. كم كرهها هو نفسه على علمه بضرورتها.

عَجِبَ (جوناس) حين بدأ أبوه يوجّه الإبرة بحذر بالغ إلى أعلى جبين الطفل ويحقن بها الموضع النابض في جلده الهزيل، ولما خرق جلده تلوّى الطفل ونحب نحيبًا ضعيفًا.

"لمَ يـــ...".

"هسْ"، قالها (المانح) بنبرة حادة خشنة.

كان أبوه يتكلم فعرف أنه الآن يسمع جواب سؤاله الذي بدأه منذ لحظة. قال أبوه: "أعرف، أعرف أنها تؤلمك أيها الرجل الصغير،

ولكن ما عساي أن أفعل؟ عليَّ أن أحقن وريدًا، وأوردة ذراعك لا تزال صغيرة جدًّا".

ضغط الكبّاس على مهل يُفرغ السائل في وريد رأسه.

"لقد فرغنا. لم يكن الأمر شاقًّا، أليس كذلك؟" قالها أبوه فرحًا مبتهجًا، ثم التفت ورمى المحقنة في وعاء المهملات.

والآن ينظفه ويريحه، قالها (جوناس) لنفسه؛ فهو يعلم أن (المانح) لا يريد كلامًا أثناء هذه المراسم القصيرة.

كف الطفل عن البكاء، وجعل يحرك يديه ورجليه حركة عنيفة، ثم ارتخت أعضاؤه وسقطت رأسه إلى جانبه مُغمضًا عينيه نصف إغماضة، ثم أضحى جامدًا بلا حراك.

لما رأى (جوناس) ما رأى صُدم صدمة غريبة. كانت حركات الطفل وهيئته وتعبير وجهه مألوفة له، قد رآها من قبل. ولكن لم يستطع أن يذكر أين.

استمر نظر (جوناس) عالقًا في الشاشة لا يفارقها ينتظر شيئا يحدث. ولكن لم يحدث شيء. ظل التوأم الصغير جامدًا في مكانه جمود التمثال لا يتحرك ولا ينطق. أنشأ أبوه يرجع الأشياء إلى أماكنها ويطوي الدثار ويغلق الخزانة.

هجم عليه مرة أخرى ذلك الشعور الذي شعر به في الملعب، وعاودته ذكرى الجندي طريح الأرض المضرّج في دمائه والحياة تفارق عينيه، اقشعر شعرُه وشحب لونه وقال في نفسه: "لقد قتله! لقد قتله أبي!" ظل فاغر الفم شاخصًا ببصره إلى الشاشة في بحر من الذهول.

رتب أبوه الغرفة ثم حمل صندوقًا صغيرًا كان على الأرض ووضعه على السرير وأودع الجسد المرتخي فيه ثم أغلق عليه وأحكم، ثم حمل الصندوق ونقله إلى الناحية الأخرى من الغرفة، ثم فتح بابًا صغيرًا في الحائط فرأى (جوناس) الظلمة التي يُفضي إليها. بدا كأنه المسقط نفسه الذي يودعون فيه النفايات في مدرسته، ثم أسلم أبوه الصندوق الذي يحمل الجثة إلى مسقط النفايات ودفعه قائلًا: "وداعًا أيها الرجل الصغير"، قالها أبوه وهو يغادر الغرفة، ثم أظلمت الشاشة على هذا المشهد البشع المهول.

التفت (المانح) إليه وأعقب في هدوء قائلًا: "لما أخطرني المذياع أن (روزماري) طلبت تسريحًا، أداروا الشريط ليروني إياه. كانت ماكثة تنتظر وكان هذا آخر عهد لي بتلك الصبية الجميلة. جاءوا بالمحقنة وطلبوا منها أن تشمر كمها. ألم تقل آنفًا يا (جوناس) إنها كانت تنقصها الشجاعة؟ أنا لا أعلم ما الشجاعة، ولا ما تعني. ولكن ما أعلمه أنني جلست حينها في مكاني مشلولًا مرعوبًا قد استولى عليّ اليأس، ثم سمعت (روزماري) وهي تقول لهم إنها تفضل أن تحقن هي نفسها. ففعلت ولكني لم أقو على النظر فحوّلت وجهي. ها هو التسريح الذي كنت تسأل عنه يا (جوناس)". قالها بصوت تشوبه مرارة.

طاش عقل (جوناس) وطفق يدور بعينيه هنا وهناك، وكسا وجهه سواد اليأس والأسى، استبدت به الوحشة، وثار في نفسه ألمٌ عظيمٌ حتى كاد ينفجر من عينيه انفجارَ الحمم من التنور.

٢٠

"لا! لن أرجع إلى البيت! لا تُرغمني على ذلك!" قالها (جوناس) وهو ينشج ويصرخ ويضرب السرير بيديه.

"اجلس يا (جوناس)، اجلس"، قالها (المانح) بنبرة حازمة.

أطاعه واستوى جالسًا على حرف السرير وهو يبكي ويرتجف ناكسًا رأسه لا يرفع طرفه إلى وجه (المانح).

"ستبيتَ هنا الليلة. أريد أن أحادثك. ولكن عليك أن تهدأ الآن ريثما أبلِغ وحدتك الأسرية. لا يسمعُك أحدٌ".

رفع (جوناس) نظره إليه بهياج وقال: "كما لم يسمع أحدٌ التوأم الصغير وهو يصرخ! المسكين! لم يسمعه إلا أبي!" قالها وغلبه البكاء وطفق يذرفُ الدموع مدرارًا حتى بللّ سترته. ظل كذلك لا تهدأ نفسه ولا يرقأ له دمع حتى قال وصوته مختنق بالبكاء: "لقد أصابني كرب لم أذق مثله قط وأظن أن الحزن والبكاء سيفتتان كبدي".

فلما رأى المانح ما رأى كاد قلبه يتفطر عليه حزنًا، فمسح ظهره بيده يقول: "هوّن عليك يا (جوناس)، هوّن عليك، فإنك تكاد تقتل نفسك غمًا".

قال يائسًا: "وكيف لي بذلك وقد سُدّت في وجهي جميع المسالك والسبل حتى يخيل إلي أنني سأقضي بقية أيام حياتي في ظلمة لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الخير ولا يلمع فيها بارق من بوارق الأمل".

قال (المانح): "لا يا (جوناس)، لا تُسلم نفسك إلى مشاعر الحزن والغضب، فهما إن تسلطا عليك قاداك إلى الهلاك. فدع عنك وساوسك واستمسك".

ظل (المانح) صامتًا منتظرًا حتى توقف دمْعُه وسكنت نفسه قليلًا وأسلم رأسه إلى ركبتيه وكتفاه ترتجفان وتضطربان اضطراب الغصن في مهبِّ الريح.

ثم قصد إلى المذياع وشغلّه فخرج الصوت قائلًا:

"تفضل أيها (المانح). كيف أساعدك؟".

"أبلغْ أسرة (المتلقي) الجديد أنه سيبيت عندي هذه الليلة، لمزيد من التدريب".

"دع ذلك لي واطمئن يا سيدي. شكرًا لك على إرشادك". قالها الصوت بنبرة باردة رتيبة.

"دع ذلك لي واطمئن يا سيدي. دع ذلك لي واطمئن يا سيدي". حاكاه (جوناس) بصوت فظ ساخر.

"سأفعل أيما شئت يا سيدي. سأقتل الناس يا سيدي. تريد مسنين؟ أم أطفالًا حديثي الولادة؟ سأكون مسرورًا بقتلهم يا سيدي. شكرًا لك على إرشادك يا سيدي. كيف عساي أن أساعدك..." بدا كأنه لا يستطيع أن يكبح جماح غضبه، فأمسك (المانح) بكتفيه، فسكت (جوناس) وحدق فيه.

"اسمعني يا (جوناس). هم لا يستيطعون أن يكفوا أيديهم ويُحجموا، فهم لا يعلمون شيئًا".

"قلت لي ذلك من قبل".

"نعم، قد قلته لأنه حق. هذه هي طريقة عيشهم هنا. هذه هي الحياة التي وضعت لهم. وهي الحياة نفسها التي كنت ستعيشها لو لم تُختَر خليفة لي".

"ولكنَّ أبي كذبني".

"كيف لا هذا ما لقّنه، ولا يعلم شيئا غيره".

"وأنت؟ هل تكذبني أنا كذلك؟" سأله (جوناس) السؤال كأنما يقذفه به.

"لقد رُخّص لي في الكذب ولكني لم أكذبك قط".

حدق (جوناس) فيه ثم قال: "أهكذا التسريح دائمًا؟ للذين يخرقون القوانين ثلاث مرات؟ والمسنين؟ أيقتلون المسنين كذلك؟".

"نعم، هذا صحيح".

"و(فيونا)؟ هي تحب المسنين! وتدرب الآن على رعايتهم. هل بلغها الأمر؟ ماذا لو بلغها؟ كيف قد يكون شعورها؟" قالها (جوناس) وكفكف بلل دموعه عن وجهه بظاهر يده.

"(فيونا) تدرب الآن على فن التسريح الرفيع. صديقتك ذات الشعر الأحمر بارعة في عملها. ليس للمشاعر مكان في الحياة التي نشأت عليها".

لف (جوناس) ذراعيه حول نفسه وأخذ يهز جسمه مقبلًا مدبرًا ثم قال: "ما عساي أن أفعل؟ أنا لا أستطيع أن أرجع! لا أستطيع!".

قام (المانح) من مجلسه وقال: "أولًا أطلب وجبتنا المسائية ثم نأكل".

وإذا (جوناس) يستعمل نفس الصوت البشع الساخر مرة أخرى قائلًا: "ثم نتشارك المشاعر؟".

ضحك (المانح) ضحكة كئيبة مُثقلة باردة وقال: "لا أحد في المجتمع يملك مشاعر سوى أنا وأنت (جوناس)، ظللنا نتشاركها ونسكب بعضنا في بعض نحو سنة".

قال (جوناس): "معذرة أيها (المانح)، لم أقصد أن أحمل كل هذا الكره، ولا سيما لك أنت".

مسح (المانح) كتفي (جوناس) المقوّستين وقال يصل كلامه: "نأكل طعامنا ثم نضع خطةً".

"أي خطة؟ وهل هناك خطة!. ليس هناك شيء نستطيع فعله. لقد كان الأمر هكذا قبلي وقبلك وقبل الذي قبلك"، قالها ولفظ العبارة المألوفة: "والذي قبله والذي قبله والذي قبله".

سكت (المانح) هنيّة ثم قال: "نعم صحيح، ظاهر الأمر أنه هكذا منذ أبد الدهر. لكن الذكريات تخبرنا غير ذلك. كان الناس قديمًا يشعرون. وقد كنا أنا وأنت جزءًا من ذلك، فنحن إذن نعرف. نعرف أنهم شعروا من قبل بمشاعر كالفخر والأسى و...".

أضاف (جوناس): "والحب" قالها بعدما ذكر مشهد العائلة الذي نكت أثره في قلبه. "والألم"، قالها يذكر ذلك الجندي.

"إن أسوأ ما يصيب حامل الذكريات ليس الألم، بل الوحدة. فالذكريات وجدت كي يتشاركها الناس".

"وقد بدأت مشاركتك إياها". قالها (جوناس) يسرّي عنه.

"هذا صحيح. ومشاركتك إياي كل هذه السنين جعلني أدرك أن الأمور يجب أن تتبدل. لقد ظل هذا شعوري سنين طويلة ولكن لم تلح لي بارقة أمل. ولكن الآن ولأول مرة تحدثني نفسي أن هنك طريقة"، قالها (المانح) بنبرة بطيئة. "وقد نبهتني إليه منذ نحو..." سكت ينظر في الساعة وقال: "ساعتين". كان (جوناس) جالسًا يراقب حركاته وينصت إلى كلامه.

حلَّ عليهما آخر الليل وظلا يتكلمان ويتكلمان كأن حديثهما لا ينتهي. كان (جوناس) جالسًا يلفه ثوب من أثواب المانح؛ ثوب طويل لا يلبسه إلا الراشدون.

بدت الخطة التي خطاها ممكنة، بالكاد ممكنة. ولكن إن كُشفت فإن (جوناس) مقتول لا محالة.

وهل يهمه ذلك؟ إن بقي حيًّا، فحياته لم تعد في نظره تستحق العيش.

"نعم"، قالها (جوناس). "سأفعلها. أظنني أستطيع فعلها. سأحاول على كل حال. ولكن ألا تصحبني؟".

هز (المانح) رأسه نافيًا وقال: "يا (جوناس)، لقد اعتمدت اللجنة في كل هذه الأجيال، القريبة منها والغائرة في أعماق الماضي، على (متلقٍ) مقيم معهم يحمل عنهم ذكرياتهم. وقد نقلت إليك كثيرًا منها خلال هذه السنة، ولا أستطيع أن أستردها. ما دمت قد منحتها فما من سبيل إلى استردادها مرة أخرى. فإن هربتَ، ما إن تتركنا حتى... وأظنك تعلم يا (جوناس) أنك لن تستطيع العودة أبدًا".

أومأ (جوناس) برأسه إيماءة كئيبة. كان هذا أكثر جزء في الخطة أثار الرعب في نفسه. "نعم أعلم. ولكنك إن صحبتني...".

هز (المانح) رأسه وصنع إشارة يُسكته بها وواصل كلامه يقول: "إن هربتَ وجاوزت الحدود وبلغت (أرض المجهول) فعلى أهل المجتمع أن يحملوا هم أعباءهم التي ظللت أنت تحملها عنهم. وأظنهم قادرين على حملها، وأنهم سيؤتون حكمة من وراء ذلك. ولكنّ حملها سوف يكون عليهم صعبًا عسيرًا. في اليوم الذي فقدنا فيه (روزماري) وعادت إليهم الذكريات هلعوا جميعًا، غير أنها كانت ذكريات قليلة جدًّا بالقياس لما مُنحتَه أنت. لذلك حين تعود ذكرياتك إليهم سيحتاجون إلى يد المعونة. ألا تذكر كيف أعنتك في مبتدأ الأمر لمّا كان تلقي الذكريات جديدًا عليك؟".

أومأ (جوناس) برأسه إيجابًا وقال: "لقد كان مخيفًا في أوله. وكان مؤلمًا جدًّا".

"لقد كنت في حاجة إليّ حينئذ، وكذلك هم".

"وفيما ينفع ذلك إذن؟ سيجدون شخصًا يحل محلي. سيختارون متلقيًا غيري".

"ليس هناك أحد مؤهل للتدريب الآن. بلى سيعجلون بالخيار. ولكن ليس في ذهني صبي آخر يحمل الصفات المطلوبة لـ...".

"هناك أنثى صغيرة ذات عينين باهتتين. ولكنها في السادسة فقط من عمرها".

"نعم صحيح. أعرف الصبية التي تقصد. لعل اسمها (كاثرين). ولكنَّ صغر سنها سيضطرهم إلى تحمل أعباء تلك الذكريات بأنفسهم".

قال (جوناس) يستجديه: "ولكني أريدك معي أيها (المانح)".

أجابه بنبرة حازمة: "لا. ينبغي أن أظل ههنا. لا أخفيك يا (جوناس) أنا أرغب في ذلك، ولكن إن صحبتك وأخذنا معنا دفاعاتهم التي تعصمهم من لذع الذكريات فسوف يصبحون في العراء لا معين لهم. وسوف تشب فيهم نيران الفوضى فيُهلك بعضهم بعضًا. لا، لا أستطيع أن أذهب وأدع ذلك يحدث".

"ليس علينا أيها (المانح) أن نُعنى ببقية الناس".

ابتسم له المانح ابتسامة مُستنكرة مُعاتبة، فشعر (جوناس) بالخزي وطأطأ رأسه خجلًا، فهما -بلا ريب- عليهما أن يكونا في حاجة الآخرين؛ لأن ذلك هو الذي يُكسب الأشياء معناها.

"ثم إنني يا (جوناس)"، قالها وتنهدة تنهيدة، "لن أنجو. فقد أهزلني تطاول العمر... هل تعلم أني لم أعد أرى الألوان؟".

تفطر قلب (جوناس) عليه فمد يديه وأخذ يد المانح.

"أما أنت فترى الألوان، وتمتلك الشجاعة. وسأعينك على تحصيل القوة".

"منذ سنة مضت، لما بلغت الثانية عشرة وبدأت أرى الألوان، قلت لي إن البداية كانت مختلفة معك. ولم ترغب في أن تشرح لي لأني لم أكن لأفهم كلامك".

سُرَّ (المانح) وانبسطت أساريره وقال: "نعم صحيح. أتعلم يا (جوناس) أنك حتى بعد كل ما امتلكت من معرفة وكل ما تلقيت من ذكريات لن تفهم كلامي؟ ذلك أني كنت جشعًا. لم أمنحك أيًّا منها، لأني أردت أن أستأثر بها حتى آخر لحظة".

"تستأثر بمَ؟".

"بدأ الأمر معي لمّا كنت صبيًّا، كنت أصغرك شيئًا قليلًا. ولكن لم أكن أرى ما وراء الحجب، بل كنت أسمع ما وراء الحجب".

عقد (جوناس) حاجبيه يحاول تلمّس مرادِه ثم قال يسأله: "وماذا سمعتَ؟".

"الموسيقي"، قالها باسمًا. "بدأت أسمع شيئًا رائعًا فريدًا، شيئًا اسمه الموسيقي. سوف أمنحك بعضه قبل ذهابي".

هز (جوناس) رأسه يأبى إباءً شديدًا وقال: "لا أيها (المانح). أريدك أن تستبقيه، ويظل معك، بعد ذهابي".

قفل (جوناس) راجعًا صباح اليوم التالي، وحيَّا والديه تحية تغمرها البهجة، ولم يتحرّج من الكذب في شأن ليلته قائلًا: "ما أجمل الليلة التي قضيتُها، وما أسعدها!".

ابتسم له أبوه ولم يتحرج، هو كذلك، من الكذب في شأن الصباح الحافل السعيد الذي قضاه.

وبينما هو جالس يستذكر دروسه، أخذ يراجع الخطة في ذهنه مرة أخرى فوجدها سهلة يسيرة. ظل هو و(المانح) يكررانها مرة بعد مرة في أواخر الليل.

سينقل (المانح) إلى (جوناس) خلال الأسبوعين التاليين، وقد دَنَتْ مراسمُ شهر ديسمبر، ما يستطيعه من ذكريات الشجاعة والقوة، فهو في حاجة إليها ليستطيع بلوغ (أرض المجهول) التي أيقنا بوجودها، وعلما أن الرحلة إليها سوف تكون عسيرة شاقة.

وحين تنتصف الليلة التي تسبق يوم المراسم سيخرج (جوناس) سرًّا من مسكنه، وهذا ربما هو أخطر جزء في الخطة، لأنه بذلك يخرق أحد القوانين العظمى التي تمنع أي مواطن من الخروج من مسكنه ليلًا في غير شغل رسمي.

قال (جوناس): "سأغادر في منتصف الليل، حينئذ يكون جامعو الطعام قد انتهوا من جمع ما تبقى من الوجبات المسائية، أما طواقم صيانة الطرق فلا يبدؤون عملهم في ذلك الوقت المبكر. وهكذا لن يكون هناك أحد يراني إلا إن كان خارجًا في شغل رسمي طارئ".

قال له (المانح): "أخوف ما أخاف عليك يا (جوناس) أن يراك راءٍ. إن لدي ذكريات كثيرة لكل أنواع الهروب. أناس هربوا أثناء التاريخ من أشياء فظيعة مهولة. ولكنَّ كل حالة فريدة تختلف عن الأخرى، ولست أملك ذكرى مثل هذه الحالة التي أنت مقدم عليها".

"اطمئن، سأكون حذرًا. لن يراني أحد".

"كونك (المتلقي) الجديد يضمن لك احترامًا كبيرًا. لذلك لا أظنهم يضغطون عليك في الاستجواب".

"إن لقيتهم سأقول لهم خرجتُ في مهمةٍ أهمّت (المانح)، ثم أقول لهم إنك أنت من حملني على الخروج متأخرًا في هكذا وقت". قالها (جوناس) يستفزه فضحكا ضحكًا يشوبه بعض القلق. ولكن (جوناس) أيقن أنه يستطيع الهروب من بيته خفية حاملًا بعض الثياب. ثم يركب دراجته في هدوء ويقصد بها إلى ضفة النهر ويخفيها في أحد الشجيرات ويترك الثياب مطويات بجانبها. ثم يشق طريقه خفية في الظلام على قدميه حتى يصل إلى (الملحق).

"ليس عندي موظفة استقبال في الفترة المسائية. سأترك لك الباب مفتوحًا. ليس عليك إلا التسلل إلى الغرفة وسأكون حينئذ في انتظارك".

سيعلم أبواه حين يستيقظان أنه قد خرج، ثم يعثرون بورقة طريفة كتبها يخبرهم أنه ذهب في رحلة صباحية مبكرة على ضفة النهر وأنه سيعود كي يحضر المراسم.

سينزعج أبواه من فعلته تلك ولكن لن يخافا. وسيرونه طائشًا ثم يوبخانه لاحقًا.

سيكونان في انتظاره في غيظ، ثم يضطران أخيرًا إلى الذهاب دونه، مصطحبين (ليلي).

قال (جوناس) واثقًا: "لن يفاتحا أحدًا في شأني. لن يذكرا وقاحتي لأنهما إن فعلا عاب الناس تربيتهما. ثم إن الناس ستشغلهم المراسم فلن يلحظوا غيابي. وما دمت قد بلغت الثانية عشرة وأصبحت تحت التدريب فلست مضطرًا بعدئذ إلى الجلوس مع مجموعتي السنوية، لذلك قد يحسب (آشر) أني جالس مع أبويّ أو معك...".

"وأبواك سيحسبانك جالسًا مع (آشر) أو معي...".

هز (جوناس) كتفيه وقال: "سيمر عليهم وقت طويل قبل أن يدركوا أني لست موجودًا البتة".

"وحينئذ نكون أنا وأنت قد قطعنا شوطًا كبيرًا من رحلتنا".

سيطلب المانح إلى المذياع بعدها أن يأتيه بعربة وسوّاق. لقد اعتاد زيارة المجتمعات الأخرى ومقابلة كهولها، فقد امتدت واجباته إلى كل المناطق المحيطة، لذلك لن يكون طلبه مُستنكرًا.

العادة ألا يحضر (المانح) مراسم ديسمبر، ولكنه حضر مراسم السنة الماضية لغرض خاص وهو اختيار (جوناس)، ولكن حياته كانت في أكثر الأمر منفصلة عن حياة المجتمع، لذلك لن يعلق أحد على غيابه هذا اليوم.

وحين يصل السواق يبعثه (المانح) في مهمة ما قصيرة ريثما يُخفي (جوناس) في مخزن العربة تاركًا معه زادًا من الطعام نوى تخزينه من وجباته طوال الأسبوعين المقبلين.

وعندما تبدأ المراسم ويحتشد المجتمع كله، سيكونان قد قطعًا شوطًا كبيرًا. وعندما ينتصف النهار سيُفتضح غياب (جوناس) ويكون شأنًا شاغلًا. أما المراسم فلن تنقطع، فانقطاع كهذا لا يتصوّر وقوعه. ولكن سينبعث الباحثون في المجتمع يتلمّسونه.

وحين يعثرون على دراجته وثيابه يكون (المانح) في طريق العودة، قد ترك (جوناس) يقطع رحلته وحده إلى (أرض المجهول).

وما إن يرجع (المانح) إلى المجتمع حتى يجدهم في فوضى وهلع، يواجهون حالة لم تعرض لهم من قبل، وما دام ليس لهم ذكريات تضيء لهم نور الحكمة فسيضطربَ أمرُهم ويطلبوا نصيحته، فيذهب (المانح) إلى المحفل حيث لا يزالون مجتمعين وينطلق إلى المنصة وينادي عليهم يطلب الانتباه، ثم يعلن أن (جوناس) قد غرق في النهر، ثم تبدأ مراسم الفقدان فينشدون بصوت عالٍ: "(جوناس)، (جوناس)" كما صنعوا قبل مع (كيليب)، فيقود (المانحُ) إنشادَهم ويخفضُ وتيرتَه حتى يختفيَ (جوناس) من وعيهم شيئًا فشيئًا ويصبح مجرد همهمة تأتي على فترات متقطعة، ثم في ختام ذلك اليوم الطويل يتلاشى ذكره ويضمحل إلى أبد الآبدين ولا يعود مرة أخرى. ثم ينصرف اهتمامهم

إلى الواجب الثقيل، واجب تحملهم أعباء الذكريات... عندئذ يقدم لهم (المانح) معونته.

"نعم، أفهم حاجتهم إليك". قالها (جوناس) بعد نقاش وتخطيط طويلين. "ولكن أنا أحتاج إليك كذلك. أرجوك أن تصحبني". ومع علمه بجوابه قالها يستجديه الاستجداء الأخير.

قال (المانح) بنبرة لطيفة: "سينقضي عملي بعدما أعين المجتمع على التغيير وأذهب عنهم البأس. أنا شاكر لك يا (جوناس) فلولاك ما اكتشفتُ طريقًا للتغيير. ولكن لكل منا دوره حتى يتم لنا ما نريد، دورك الهروب، ودوري البقاء".

"ولكن ألا تريد أن تصحبني أيها (المانح)؟" قالها (جوناس) حزينًا، فاحتضنه (المانح) إلى صدره وقال: "أحبك يا (جوناس). ولكن اعذرني، عندي سبيل أخرى أسلكها. بعد انقضاء عملي ههنا أرغب في أن أكون مع ابنتي".

كان (جوناس) ينظر إلى الأرض كئيبًا، وما سمع مقالته حتى رفع نظره مذهولًا مشدوهًا وقال: "وهل لك ابنة! قلت لي إن لك زوجًا، ولكن لم أعلم عن ابنتك شيئًا".

فافتر ثغر (المانح) عن ابتسامة وأومأ برأسه، وما رآه (جوناس) فَرِحَ بشيء فَرَحَه بذكر ابنته. قال: "كان اسمها (روزماري)".

٢١

عسى خطتنا تنجح. طفق (جوناس) طوال يومه يمنّي نفسه قائلًا: نستطيع إنجاحها. ولكن هذا المساء تغيّر كل شيء وتهدّم البنيان الذي استغرقا تفكيرهما في تأسسيه.

اضطر (جوناس) هذه الليلة إلى الفرار. غادر مسكنه بعدما أظلمت السماء ونام الناس، كان فراره خطيرًا مهولًا، ذلك أن بعض الطواقم كانت لا تزال في شغلها، ولكنه مشى متسللًا لا يحدث صوتًا ولا يبرح الظلال وهو قاصد إلى النهر مجاوزًا المساكن المظلمة والساحة المركزية الخالية من كل حس وحركة. ومن ورائها لاحت له دار المسنين والبناء الملحق يعترضان السماء المظلمة. تمنى الوقوف ولكنه لم يستطع، فما كان هناك وقت، فكل دقيقة محسوبة، وكفيلة أن تبعده أكثر عن المجتمع.

اعتلى الجسر وهو محدودب على دراجته يقودها دون تريّث ولا بطء. نظر أسفل الجسر فرأى على البعد مياه النهر المظلمة تتحرك حركة هائجة مضطربة كأنها تصارع بعضها بعضًا. عجب (جوناس) أنه لم يكن خائفًا ولا نادمًا من مغادرة المجتمع. ومع ذلك هبت عليه نفحة شديدة من نفحات الحزن لأنه قد غادر حبيبه (المانحَ). علم أنه في هكذا هروب تحفه المخاطر عليه أن يظل صامتًا لا ينبس؛ ولكنه تمنى بقلبه وعقله لو أنّ وداعه قد بلغ (المانح) بقدرته على (سماع ما وراء الحجب).

لقد حدث ذلك في الوجبة الصباحية. كانت وحدته الأسرية تأكل معًا، كما هو دأبها، وكانت (ليلي) تثرثر ثرثرتها وأبواه يعلقان على اليوم تعليقاتهما المعتادة (وكذباتهم كذلك التي عرفها (جوناس) مؤخرا)، وعلى مقربة منهم كان (جابرييل) جالسًا على الأرض يلعب مسرورًا ويهذي بكلامه الطفولي وينظر فرحًا مبتهجًا إلى (جوناس) بين الفينة والفينة، لأنه عاد إليهم بعد ليلة باتها بعيدًا عن المسكن.

وبينما هم كذلك ألقى الأب نظرة على الطفل الصغير وقال: "استمتع بها أيها الرجل الصغير، فهذه آخر ليلة ضيافة لك".

سأله (جوناس) قائلًا: "ماذا تقصد؟".

تنهد أبوه تنهيدة تشوبها خيبةُ أمل وقال: "تعلم أنه لم يكن هنا حين رجعتَ إلى البيت هذا الصباح لأنه بات ليلته في مركز الحضانة. انتهزنا فرصة غيابك وحاولنا معه لعله ينام عميقًا كما كان معك".

سألته الأم مشفقة تقول: "ولم تُفلح المحاولة؟".

ضحك الأب ضحكة كئيبة وقال: "لم تُفلح؟ قولي كارثة. ظل يبكي ليله كله ولم يستطع الطاقم الليلي تسكيته، وما وصلت إليهم حتى وجدتهم مُنهكين مكدودين".

"ويحك يا (جيب)، أيها الشيء المشاكس"، قالتها (ليلي) وطقطقت بلسانها توبخ الطفل الصغير المتبسم. استمر الأب في حديثه قائلًا: "لذلك، اتخذنا القرار مضطرين. حتى أنا صوتت على تسريحه في اجتماع هذه الظهيرة".

وضع (جوناس) شوكته وحدّق في وجه أبيه قائلًا: "تسريحه؟".

أجابه أبوه بإيماءة وقال: "لقد بذلنا وسعنا معه، أليس كذلك؟".

"بلى فعلنا"، قالتها الأم بنبرة جازمة. وأومأت (ليلي) تصديقًا كذلك.

سأله (جوناس) محاولًا جهده أن يبقي صوته هادئًا غير مضطرب: "ومتى يسرّح؟".

"أول شيء نفعله صباح غد. علينا أن نبدأ استعدادتنا لمراسم التسمية، لذلك آثرنا العجلة".

"غدًا نودّعك يا (جيب) الصغير"، قالها أبوه بصوته الغنائي العذب.

بلغ (جوناس) الناحية الأخرى من النهر وتوقف قليلًا والتفت وراءه ينظر. كان المجتمع الذي قضى حياته كلها فيه قابعًا خلفه الآن، يغط في نومه. وحين يحضر الفجر تستمر الحياة المنظمة المرتبة التي ألفها، ولكن من دونه. تلك الحياة التي ليس فيها شيء مفاجئ أو مزعج أو غريب. تلك الحياة المجردة من اللون والألم والماضي.

ضغط على دواسة الدراجة ضغطة أخرى وانطلق يستكمل أدراجَه، فوقوفه هكذا طويلًا لا تؤمن عواقبه. أخذ يعدد القوانين التي خرقها حتى الآن فأدرك أنها تكفي لإدانته إن قُبض عليه.

أولًا غادر مسكنه في الليل وهذه مخالفة عظيمة.

ثانيًا سرق طعام المجتمع، وهو جُرْمٌ خطير، على الرغم من أن ما أخذه كان بقايا طعام موضوعة قبالة أبواب المساكن كي يجمعها الجامعون.

ثالثًا سرق دراجة أبيه بعدما تردد للحظة وهو واقف في الظلمة إلى جنب منفذ الدراجة، فهو لم يكن يريد من أبيه شيئًا، ثم إنه خشي

ألا يُحسن ركوبها. ولكنّه كان مضطرًا إليها لأنها اشتملت على مقعد أطفال.

وقد اصطحب (جابرييل) كذلك.

أحس رأسه الصغيرة تَغْمِزُ في ظهره غمزة لطيفة وترتد عنه وهو يقود الدراجة. كان (جابرييل) غارقًا في نومه مربوطًا رطبًا محكمًا في مقعده. قبل أن يغادر المسكن وضع يده على ظهر (جيب) ونقل إليه أهدأ ذكرى بين ذكرياته، ذكرى أرجوحة شبكية تتأرجح تأرجحًا لطيفًا تحت النخيل على جزيرة ما في المساء، مع نغمة ماء لطيف يندفع إلى شاطئ قريب اندفاعة تعبث بالأجفان وتستحث على النوم. أحس أثناء تسلل الذكرى إلى الطفل الجديد أن نومه قد ازداد راحة وعمقًا، حتى إنه لم يبدِ أي تململ حين حمله جوناس من سريره الصغير ووضعه برفق في المقعد المخصص له.

علم (جوناس) أنه لم يتبق له من ساعات الليل إلا القليل قبل أن ينبلج الصباح ويدركوا أمر هروبه، لذلك قاد دراجته بقوة وثبات عازمًا ألا يستسلم للتعب بمرور الدقائق والأميال. لم يكن هناك وقت ليتلقى ذكريات القوة والشجاعة التي عوّلا عليها هو و(المانح)، فاتكل على ما معه راجيًا أن يكفيه.

طاف المجتمعات المحيطة ومساكنها المظلمة. اتسعت المسافة بين المجتمعات شيئًا فشيئًا وكثرت الطرق الممتدة الخالية. آلمته رجلاه في أول أمره ولكن بمرور الوقت بلغ منهما الجهد حتى خدرتا.

بدأ (جابرييل) وقت الفجر يشتكي ويتململ. كانا يسيران في مكان معزول؛ وكانت الحقول على جانبي الطريق تغص بآجام من الشجر.

أبصر جدولًا صغيرًا فقصد إليه عبر مرج وَعِرٍ قَدْ أثرت فيه أُطُرُ العربات؛ كركر (جابرييل) ضاحكًا والدراجة ترجرجه صعودًا ونزولًا.

حل (جوناس) رباط (جيب) وأنزله من على الدراجة، وظل يرقبه وهو يستكشف الحشائش والأغصان الصغيرة في بهجة وحبور. مضى (جوناس) إلى الشجيرات الكثيفة الملتفة وخبأ فيها الدراجة.

"حان وقت الوجبة الصباحية يا (جيب)!" قالها (جوناس) وحل لفافة الطعام وأكلا، ثم ملأ الكأس الذي أحضره معه من الجدول الصغير ووضعه على فم (جابرييل) يسقيه وشرب هو بنهم، ثم جلس لدى الجدول يرقب الطفل الجديد وهو يلعب.

كان مرهقًا قد هده التعب. علم أنه عليه أن ينام كي يريح عضلاته ويعد نفسه إلى مزيد من الساعات على الدراجة، فسفره في وضح النهار لن يكون آمنًا.

لعلهم ينبعثون قريبًا في طلبي.

وجد مكمنًا خفيًّا في الشجر فأخذ الطفل إليه واضطجع يحمله بين ذراعيه. قاومه (جابرييل) مسرورًا مبتهجًا يحسبه يلاعبه المصارعة التي اعتادا لعبها في المسكن دغدغة وضحكًا.

"عذرًا يا (جيب). أعلم أنه الصباح وأنك استيقظت منذ قليل. ولكن علينا أن ننام الآن".

احتضن جسمه الصغير إلى صدره ومسح ظهره وهمهم له همهمة لطيفة يهدّئه ثم ثبّت يديه ونقل إليه ذكرى تعب مُجهد لا يُغالب، ظلا كذلك قليلًا حتى سقطت رأس (جابرييل) على صدر (جوناس). وهكذا جاوزا معًا أول يوم خطير.

أخوف ما يُخاف كان الطائرات. مرت الأيام ولم يعد (جوناس) يعرف عددها. وأصبحت الرحلة تتكرر أجزاؤها كل يوم: فنومٌ في النهار، وتخفٍ في الشجر صغيره وكبيره، وبحث عن الماء، وقسمة حذرة لفتات الطعام مشفوعة بما يعثر عليه (جوناس) في الحقول من خضرة وفاكهة، وأميال لا تكاد تنتهي يقطعها على دراجته في الليل.

تشنجت عضلات رجليه، كان يشتد عليه ألمها قبل النوم. ولكنها أضحت أقوى من قبل وقلت وقفات الراحة التي كان يتخذها. كان يتوقف في بعض الأحيان ليضع (جابرييل) عن الدراجة ويتريضا معًا قليلًا في الظلمة على الطريق أو الحقل حتى إذا رجع إلى الدراجة ربط الطفل الصغير غير المتذمر في مقعده مرة أخرى واعتلى دراجته بعدما استعدت رجلاه.

كان لديه قوة تكفيه ولم يحتج إلى ما كان (المانح) ينوي إعطاءه إياه إن اتسع له الوقت.

ولكن لمّا جاءته الطائرات تمنى لو كان تلقى ذكريات الشجاعة.

علم أنها كانت طائرات بحث. حلقت على مسافة منخفضة جدًّا حتى أيقظه ضوضاء محركاتها، وفي بعض المرات كان ينظر إليها من مخابئه خائفًا مضطربًا فيلمح وجوه الطيّارين.

علم أنهم لا يستطيعون رؤية الألوان، وأن بشرتهما ولفائف شعر (جابرييل) الذهبية لن يظهرا لهم إلا بقعًا رمادية وسط أوراق الشجر عديمة اللون. ومع ذلك ذكر من دروسه التي تلقاها في مادة العلوم والتكنولوجيا أن طائرات البحث تستعمل أجهزة تستشعر حرارة الجسم وتستطيع كشف شخصين مختبئين وسط الشجيرات. لذلك

حين تبلغ مسامعه صوت الطائرات يُسرع إلى (جابرييل) وينقل إليه ذكرياتِ ثلج ويستبقي بعضها لنفسه، فيبردان معًا وبعد ذهاب الطائرات عنهما تأخذهما رجفة، وهما يحتضنان بعضهما بعضًا، حتى يغلبهما النوم مرة أخرى.

أحس (جوناس) في بعض المرات وهو ينقل الذكريات إلى (جابرييل) أنها أصبحت أخفت، وأضعف قليلًا عما كانت. وكان هذا ما رجته نفسه، وما خطه هو والمانح معًا، ألا وهو: ما إن يبتعد عن المجتمع حتى يهرق الذكريات ويتركها للناس. ولكنه لما جاءته الطائرات واحتاج إليها حاول جهده أن يستمسك بما بقي معه من البرد ليستعمله في نجاتهما.

كانت الطائرات تأتيهما في الصباح وهما مختبئان. ولكنه كان حذرًا في الليل مُصيخًا يتلمس صوت المحركات. حتى (جابرييل) أصاخ، فإذا سمعها صاح قائلًا: "طائرة! طائرة!" قبل أن يبلغ دويها المرعب أذني (جوناس). ولمّا جاءه باحثو الطائرات ليلًا أثناء ركوبه فزع (جوناس) إلى أقرب شجرة أو شجيرة وارتمى على الأرض وبرّد جسميهما، وفي بعض المرات كادت الطائرات تدركه.

بعدما انتهى حاله إلى الطبيعة المهجورة وبعدت الشقة بينه وبين المجتمعات، واختفت آثار سكنى البشر من حوله ومن أمامه، أصبح وهو يقود الدراجة يقظًا طوال ليله يُكثر التلفت يمينًا وشمالًا بحثًا عن أقرب مخبأ يهرع إليه إن جاءه صوت الطائرات مرة أخرى.

قل اختلاف الطائرات إليهما، وأصبحت تطير، إن جاءتهما، أبطأ مِن قبل كأن البحث أتى دون تخطيط ولم تعد ترجى منه ثمرة. ثم جاء يوم كامل لم تظهر فيه أي طائرة.

٢٢

بدأت الطبيعة تتغير، كان تغييرًا يسيرًا، يصعب تبيّنه لأول وهلة. أصبح الطريق أضيق وأوعر ولم تعد تطرقه طواقم السكك. صَعُبَ على (جوناس) موازنة الدراجة لما بدأ الإطار الأمامي يترجرج على حصى الطريق.

ذات ليلة سقط حين اصطدمت العجلة بإحدى الصخور، فأمسك بـ (جابرييل) فلم يُصَب الطفل المربوط في مقعده شيءٌ حين سقطت الدراجة على جنبها إلا الخوف. أما (جوناس) فالتوى كاحله وخُدشت ركبتاه وسال الدم على سرواله الممزق. أقام صلبه ودراجته متثاقلًا متألمًا ومال على (جيب) يطمئنه.

ثم استأنف المسير حذرًا في وضح النهار. نسي خوف الباحثين الذين بدوا كأنهم غدوا في عداد الماضي. ومع ذلك كانت هناك مخاوف جديدة تنتظره، تُرى ما أعدت لي هذه الطبيعة غير المألوفة من مخاطر خفيّة مجهولة؟

تكاثرت الأشجار، وكانت الغابات على جانبي الطريق مظلمة يملؤها الغموض. بدآ يبصران الجداول أكثر من قبل ويتوقفان كثيرًا ليشربا. غسل (جوناس) في حذر ركبتيه المخدوشتين، وجعل يتوجّع وهو يمسح جلده المسلوخ. وكان يخف عنه ألم كاحله المتورم حين

ينقع رجله بين الفينة والفينة في الماء البارد الجاري في الأخاديد التي حفت جانبي الطريق.

أدرك (جوناس) أن سلامة (جابرييل) تعتمد على عدم فتور قوته.

رأيا أول شلال، ومتعّا أعينهما لأول مرة بالحياة البرية.

صاح (جابرييل) قائلًا: "طائرة! طائرة!" فهوى (جوناس) إلى الأشجار ليختبئا فيها، على الرغم من أنه لم يرَ طائرات منذ أيام، ولم يبلغ أذنيه صوت محرك. ولمّا أوقف الدراجة وسط الشجيرات والتفت إلى (جيب) ليحمله رأى ذراعه الصغيرة الممتلئة تشير إلى السماء، فرفع (جوناس) نظره مذعورًا مرتعد الأوصال فلم يجدها طائرة. وهو إن كان لم ير واحدة من قبل ولكنه عرفها من ذكرياته الآفلة، ذلك أن (المانح) كثيرًا ما كان يمنحها له. كان الذي رآه طائرًا.

ثم رأيا في طريقهم طيورًا كثيرة، تحلق فوقهما وتزقزق. ورأيا غزالة؛ وعرض لهما مرةً على جانب الطريق شيء ينظر إليهما في فضول ودون خوف، كان مخلوقًا صغيرًا ذا ذيل سميك ولون بني ضارب إلى الحمرة لا يعرف (جوناس) اسمه. أبطأ دراجته وطفقا يردد بعضهم النظر في بعض حتى تولى عنهما واختفى وسط الغابات.

كانت كل هذه الأشياء جديدة عليه لا سابق عهد له بها. وبعدما عاش حياته حبيسًا بين قضبان النمطية والرتابة، ملكت عليه لبه عجائبُ المنظوراتِ وغرائبُ المشاهدات التي كان يراها في كل منعطف طريق، حتى شخص بصرُه ذهولًا وهامت عيناه ههنا وههنا، فطفق يبطئ دراجته تارة بعد تارة لينظر مشدوهًا مفتونًا إلى الزهور البرية البهيجة مختلفة الألوان وهي تموج بعضها في بعض كأنها أحجار الزمرد والياقوت

والماس والفيروز، ويتمتع بصوت طائر فريد يغرد على مقربة منه تغريدًا عذبًا لطيفًا يصيد القلوب، ويشاهد الريح وهي تهب على الأشجار حينًا خفيفة فتتبختر وحينًا شديدة فتتراقص فيسمع لها حفيفًا يطرب الآذان ويُسكن النفوس. لم تمر عليه أثناء الاثنتي عشرة سنة التي قضاهن في المجتمع لحظات كهذه اللحظات التي تغمر المرء بهجة وحبورًا.

ومع ذلك كانت هناك مخاوف عظيمة تنبت في نفسه. أخوف تلك المخاوف الجديدة كان الموت جوعًا. فالعثور على طعام يكاد يكون مستحيلًا بعدما جاوزا الحقول ذوات المحاصيل. لقد نفد مخزونهما من البطاطا والجزر وحلت بهما أزمة الجوع.

جثا (جوناس) لدى جدول صغير ومد يده يحاول أن يمسك سمكة بيديه، ظل يحاول ويحاول حتى يئس، فجعل يرمي بالصخور في الماء وهو يعلم أن ما يفعله لا يُرجى له نفع. حتى فتقت الحاجة له حيلة فصنع شبكة متواضعة بما في أيديهما، عاقدًا خيوطًا من دثار (جابرييل) حول عصا مقوسة.

وبعد محاولات لا تُحصى أطبقت الشبكة على سمكتين فضيتين تتقافزان. قطعهما (جوناس) قطعًا صغيرة مُستعملًا صخرة حادّة، وأطعم نفسه و(جابرييل) مُزق اللحم النيئة. ثم أكلا بعض التوت، وحاول محاولة بائسة أن يصطاد طائرًا.

ولمّا كان الليل ونام (جابرييل) ظل (جوناس) ساهرًا لا يهنأ له مضجع ولا يغمض له جفن، يتقلب يمينًا وشمالًا يحاول النوم فيمنعه الجوع الذي يعمل في بطنه عمل السكين. سرح يذكر حياته التي قضاها في المجتمع حيث كانت تأتيه الوجبات إلى عتبة بابه كل يوم.

حاول التسلح بسلاح الذكريات ليصنع وجبات تُسكن لهيب الجوع وتُسبل عليه رداء الصبر، فاستطاع بعد لأي استحضار بعض اللمحات السريعة التي فتت في أمعائه وأذاقته عذاب الحرمان. رأى موائد عليها لحوم مشوية عظيمة الحجم؛ وحفلات أعياد ميلاد ذات كعك يغشاه غطاء سميك من الكريمة؛ وفاكهة شهية مُذللة تُهتصر من على الأشجار وتؤكل دافئة من الشمس تتقاطرُ منها عصارتها.

ولما تولت عنه تلك اللمحات ساد من حوله سكون عميق لم يسمع فيه إلا قرقرة أحشائهما المتقدة فتعاظمت عليه همومه ووساوسه. و بينما هو كذلك قفزت ذكرى قديمة إليه فزادته كآبة على كآبته، ذكر المرة التي وُبّخ فيها وهو طفل صغير حين عثر لسانه فقال إنه: "يتضوّر جوعًا". فقيل له إنك لم ولن تتضور جوعًا.

وها هو الآن يتضور جوعًا. لم يكن ليكون كذلك إن لم يخرج وبقي في المجتمع. كان الأمر بهذه السهولة. ود ذات يوم لو يملك القدرة على الاختيار. ثم لما اتيحت له الفرصة، اتخذ خيارًا خاطئًا، ألا وهو خيار المغادرة. وها هو الآن يكاد يموتُ جوعًا.

ولكن لو بقيتُ...

وتتابع سيل أفكاره. لو بقيتُ لأصابني جوعٌ آخر، جوع المشاعر والألوان، جوع الحب.

وجابرييل، ماذا عنه؟ فإني لو بقيت لذهبت عنه نعمة الحياة. إذن لا ينبغي أن آسف على ما اخترتُ.

شق عليه قيادة الدراجة بعدما أوهنَه شُحُّ الغذاء، وأدرك في الوقت نفسه أنه مُقبل على شيء طالما تاق إلى رؤيته، وهو التلال. طفق كاحله

الملتوي ينزغ نزغًا وهو يثبت رجله على الدواسة أثناء نزوله المنحدر في مجهود يكاد يفوق طَوْقَه.

ثم تغير طقس السماء. ظلت تُمطر عليهما يومين متتابعين. لم يرَ (جوناس) المطر قطُّ، ولكنّه عرضَ له مرارًا أثناء تلقيه الذكريات، حينها أعجبه المطر ولذّ له ذلك الشعور الجديد، ولكن هذا المطر الذي نزل عليهما كان مختلفًا، كان دائمًا كثيفًا كأنما هو ينابيع متفجرة. سرى فيهما البرد وعلق بهما ماء صعُب جفافُه حتى على أشعة الشمس التي كانت كثيرًا ما تتبع المطر بعد انجلائه.

لم يبك (جابرييل) في هذه الرحلة المخيفة الطويلة. ولكنه لم يملك نفسه الآن. لقد بكى لأنه جوعان، بردان، ضعيف موهون. وبكى (جوناس) كذلك للأسباب نفسها، وزاده سبب آخر بكاءً إلى بكائه حتى جعل الدمعُ يتحدر على خده تحدر المطر من المُزنة الهاطلة. لم يكن سببًا يتعلق به، فهو لم يعد يبالي بنفسه. وإنما خشي ألا يستطيع إنقاذ (جابرييل).

٢٣

ازداد يقين (جوناس) أن الغاية التي خرج في طلبها قابعة أمامه، على مقربة منه تحت هذا الليل الذي أخذ يُرخي أول سدوله. ولكن لم تؤكد له حاسة من حواسه. لم يرَ أمامه إلا شريطَ الطريقِ غيرَ المتناهي ينكشف له في المنعطفات الضيفة الملتوية، ولم يبلغه من أمامه صوت.

ولكن أحس أن (أرض المجهول) ليست بعيدة. ولكن لم يبق له من الأمل في بلوغها إلا شيء يسير يتعلق بأهدابه، وحتى ذلك القليل المتبقي كاد يتلاشى لمّا بدأ الهواء البارد اللافح يصير ضبابيًا ويمتلئ بياضًا ثائرًا.

كان (جابرييل)، الملفوف في دثاره الممزق الذي لا يغني عنه من البرد شيئًا، محدودبًا يرجف، صامتًا في مقعده الصغير لا ينبس. أوقف (جوناس) الدراجة تعبانَ حاسرًا، وأنزل الطفل وهو حزين يكاد قلبه ينفطر حين رأى كيف بلغ البرد والضعف مبلغهما منه.

وبينما هو واقف في هذه الكومة الثلجية التي جعلت تتكاثف حول رجليه الخَدِرَتين حلَّ (جوناس) أزرار سترته وفتحها واحتضن (جابرييل) إلى صدره العاري، ولفَّ الدثار المتسخ الممزق حولهما. تحرك (جابرييل) واهنًا متثاقلًا ونشج قليلًا في هذا الصمت الرهيب الذي أحاط بهما.

تذكر (جوناس) ما كان هذا البياض من ذكرى غير واضحة كادت تُنسى، ذكرى ضبابيّة كضبابية الشيء نفسه.

همس إليه (جوناس) قائلًا: "هذا اسمه ثلج يا (جيب)، كِسَف ثلجية، تتساقط من السماء، وهي بديعة، رائعة الجمال".

لم يأته رد من الطفل الذي اعتاده (جوناس) شغوفًا متيقظًا، فأخفض (جوناس) بصره ينظر خلال العتمة إلى رأسه الصغيرة المسندة إلى صدره، فإذا شعره المُمَوَّج قد أصبح قَذِرًا متشابكًا بعضه في بعض، وإذا خطوط رسمتها دموعه على الوسخ الذي غطّى خديه الشاحبين، وبينما (جوناس) ناظر إليه إذ هبطت كِسفة ثلجية وعلقت للحظة بأهداب عينيه المرتعشة.

رجع إلى دراجته متثاقلًا، ولاح له بعيدًا تل شديد الانحدار. في أحسن الظروف يكون صعود التل صعبًا جهيدًا. أما الآن فقد أذهب الثلج المتكاثف ملامح الطريق الضيّق وجعل صعوده مستحيلًا. تقدم إطاره الأمامي شيئًا قليلًا لما ضغط على الدواستين برجليه الخدرتين المُجهدتين. ومع ذلك توقفت الدراجة، وجمدت في مكانها، فنزل عنها وتركها تسقط على جنبها في الثلج. أغراه منظرها فقال في نفسه: "لو أننا نسقط إلى جانبها ونمرغ في نعومة الثلج، ونتدثر بدثار الليل، ونستمتع براحة النوم الدافئة!".

ولكنه نفض عن نفسه وساوسها وقال: "لن أستسلم بعد كل تلك المسافة التي قطعناها. عليَّ استكمال المسير".

ولكن الذكريات قد تخلفت عنه، تفلتت من قبضته لترجع إلى أهل مجتمعه. أبقي لي شيء منها؟ هل أستطيع أن أنعم بشيء أخير من الدفء؟ أما زلت أملك قوة المنح؟ أما زال (جابرييل) يستطيع التلقي؟

وضع يده على ظهر (جابرييل) وحاول أن يستحضر أشعة الشمس لعله ينسج من خيوطها كساء يتقي به هذا البرد. فظل هنيّة لا يأتيه شيء، كأن قوته قد ودعته. ثم ما لبث أن خفقت له، وأحس الحرارة تتسلل إليه تسلل النمل من مخابئه، فتورّد منها وجهه وارتخى جلد أطرافه المتجمدة. لذ له هذا الحمّام من الأشعة الشمسية وأراد للحظة الاستئثار به دون أن يكدرَه عليه مُكدّر.

ولكن مرت اللحظة وأتبعها دافع، بل حاجة، بل توق عميق إلى مشاركة هذا الدفء مع الشخص الوحيد الذي لم يبق له أحد غيره يحبه. فبثَّ ذكرى الدفء، وهو يتوجع من الجهد الذي بذله، إلى الجسم الهزيل المرتجف الذي يحمله بين ذراعيه.

نشط (جابرييل) في مكانه وغشيتهما الحرارة وانبعثت فيهما القوة أثناء وقوفهما في هذا الثلج الحاجب للرؤية يحتضنان بعضهما بعضًا.

وبدأ (جوناس) يصعد التل.

أسف (جوناس) على قصر الذكرى. لم تستمر له إلا بضع ياردات مشاها متثاقلًا ثم ذهبت عنه وأسلمتهما إلى أنياب البرد مرة أخرى.

ولكنَّ عقله كان يقظًا متقدًا، قد زحزحت الحرارة عنه الخمول والاستسلام وأحيت فيه إرادة البقاء. بدأ يمشي أسرع من قبل، مُتحاملًا على قدم لم يعد يحس بها. ولكنَّ انحدار التل كان خطيرًا مرعبًا؛ وقد اجتمع على إعاقته شيئان، الثلج، وضعف قوته. لم يقطع مسافة طويلة حتى عثر وهوى.

وبينما هو على ركبتيه لا يقدر على النهوض حاول (جوناس) محاولة ثانية، فأرسل وعيه يفتش في زوايا ذاكرته عن ذكرى أخرى

دافئة، فأدرك واحدة، فحاول يائسًا أن يَعَضَّ عليها ولا يتركها، فلما تمكن منها كبّرها ثم مرّرها إلى (جابرييل). نشطت روحه وزادت همته فنهض قائمًا. ولما بدأ يتسلق نشط (جابرييل) مجددًا.

ولكن اختفت الذكرى وتركته أبرد من قبل.

منّى نفسه قائلًا: "لو كان في الوقت سعة قبل هروبي تسمح لي بتلقي مزيد دفء من (المانح)!". فلما كادت نفسه تنجرف في وساوس "لو" نفض رأسه وقال: "حسبي، فقول (لو) لن ينفعني شيئًا. لا ينبغي أن أصرف تفكيري عن تحريك قدمي، وتدفئة نفسي و(جابرييل)، والمضي قدمًا".

تسلق، ثم توقف، ثم بث فيهما الدفء تارة أخرى قصيرة مستعملًا بقية قليلة من ذكرى بدت أنها آخر ما يملك.

بدت ذروة التل بعيدة جدًا، ثم إنه لم يعلم ما يقبع من وراءها. ولكن لم يجد بدًّا أن يستكمل المسير، فظل يصعد متثاقلًا، وبينما هو يقترب من الذروة بدأ يعتمل في نفسه شيء جديد. لم يَصر أدفأ؛ بل زاد خَدَرًا على خَدَرِه وبردًا على برده. لم يقل نَصَبُه؛ بل ثقلت خطواته واستعصى عليه تحريك رجليه المتجمدتين الحاسرتين فكان كأن عليه حُلّة من حديد.

بدأ يشعر بالسعادة ويذكر أوقاته السعيدة، فذكر أبويه وأخته، وذكر صديقيه (آشر) و(فيونا). وذكر (المانح).

وإذا ذكريات البهجة تغمره غمرًا.

ولما بلغ من التل آخره حيث بدأت الأرض تستوي تحت رجليه المغطاتين بالثلوج، اطمأنت نفسه أنه لن يصعد بعدها منحدرًا.

"أوشكنا أن نبلغ الغاية يا (جابرييل)" همسها إليه مستيقنًا دون أن يدري لمَ. "أذكر هذا المكان يا (جيب)"، وقد صدق في مقالته. ولكنها لم تكن ذكرى قصيرة شاقة؛ كانت هذه أمرها مختلف. كانت ذكرى يستطيع استبقاءها. كانت ذكرى تخصه.

احتضن (جابرييل) وجعل يمسد جسمه يُدَفّئه ليبقيه على قيد الحياة. كانت الريح عنيفة صرصرًا. وهاج عليه الثلج فحجب رؤيته. ولكنه علم أن ثمة مكانًا وراء هذه العاصفة ممتلئًا دفئًا وضوءًا.

متكلًا على ما بقي له من قوة، وعلم خاص في قرارة نفسه، وجد (جوناس) المزلجة التي كانت تنتظرهما عند قمة الجبل. تحسست يداه الحبل في فتور.

استوى على المزلجة وضم (جيب) إلى صدره ضمًّا شديدًا. كان التل منحدرًا ولكن الثلج كان لينا سهلًا كأنه الدقيق. علم أن نزوله هذه المرة لن يكون فيه جليد ولا سقوط ولا ألم. تدفق قلبه أملًا داخل جسمه المتجمد.

بدآ ينزلان.

أحس (جوناس) نفسه يفقد الوعي، وعقد العزم على أن يظل قائمًا فوق المزلجة متشبثًا بـ (جابرييل) كي يبقيه سالمًا. شقت به الزلاجتان الثلج وطفقت الريح تضرب وجهه وهما يخترقان في خط مستقيم فتحة بدت أنها مفضية إلى الغاية الأخيرة، ألا وهي (أرض المجهول) التي تحمل مستقبلهم وماضيهم.

فتح عينيه في أثناء نزولهما وتزلجهما فإذا هو يرى أضواء، فلما رآها عرفها. عرف أنها أضواء تلمع من خلال نوافذ الغرف، وأنها

كانت الأضواء الحمراء والزرقاء والصفراء التي تلألأت على الأشجار حيث صنعت العائلات الذكريات واحتفظت بها، وحيث احتفلوا فيها بالحب.

ظلا ينزلان وينزلان ويزدادن سرعة على سرعتهما حتى أدرك بَهِجًا مستيقنًا أنهم منتظروه في الأسفل، أمامه. وكانت هذه أول مرة يسمع فيها شيئًا علم آنفًا أن اسمه (الموسيقي). وسمع أناسًا يغنون.

ومن وراءه، عبر المسافات المكانية والزمانية الشاسعة، من المكان الذي هجره، ظن أنه سمع موسيقي. ولكن لعلها لم تكن إلا صدى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المانح

لويس لوري

في عالم مثاليّ يخلو من الفقر والجريمة والمرض، يُختار الفتى جوناس لتولّي مهمة فريدة ومميزة؛ تكليف يضعه في موقع استثنائي، لكنه في الوقت ذاته يفتح أمامه أبواباً لا يمكن إغلاقها.

بأسلوب آسر وتأمل عميق في معنى الذاكرة والاختيار والحرية، تقودنا لويس لوري في رواية تبوأت مكانتها الفارقة في الأدب الحديث، إذ أضاءت المسافة الملتبسة بين الكمال والخداع، والطاعة والإنسانية.

حازت رواية المانح على ميدالية نيوبري عام 1994، وجاءت ضمن أكثر الأعمال الأدبية تأثيراً في القرن العشرين، لتقدم تجربة لا تُنسى عن ثمن المعرفة وسر الوعي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الخان للنشر والتوزيع
info@daralkhan.com
@daralkhan_kw